إيلينا فيرّانتي

الابنة الغامضة

رواية

ياسمين
Books
t.me/yasmeenbooks

ترجمة

شيرين حيدر

إيلينا فيرّانتي

الابنة الغامضة

رواية

ترجمة: شيرين حيدر

مراجعة: د. عزالدين عناية

© هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ4866.E6345 F5412 2016
Ferrante, Elena, 1943-
[La figlia oscura]
الابنة الغامضة : رواية / تأليف إيلينا فيرّانتي ؛ ترجمة شيرين حيدر ؛ مراجعة عز الدين عناية. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.
164 ص. ؛ 13 × 20,2 سم.
ترجمة كتاب : La figlia oscura
تدمك : 978-9948-17-570-4
1ـ القصص الإيطالية– القرن 21.
أ– حيدر، شيرين. ب– عناية، عز الدين. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:

Elena Ferrante
La figlia oscura
© Copyright by Edizioni E/O 2006 (Sharq/Gharb)

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الابنة الغامضة

رواية

ياسمين Books
t.me/yasmeenbooks

1

بدأتُ أشعر بالضيق بعد أقل من ساعة على قيادتي السيارة. عاد الحريق في وركي ولكنّي قررت إهماله لبعض الوقت. لم أقلق إلاّ عندما أدركت أنني لا أملك الطاقة الكافية للإمساك بالمقود. وثقُل رأسي في غضون دقائق قليلة، وشحُبت فوانيس السيارات أكثر فأكثر، وسرعان ما نسيت حتى أنني أقود. فقد ساورني انطباع أنّني عند البحر في وضح النهار. كان الشاطئ مقفراً والمياه ساكنة غير أنّ راية حمراء كانت تخفق على رأس عمود على بعد أمتار قليلة من الضفة. كانت أمي قد أخافتني كثيراً عندما كنتُ صغيرة بقولها لي: ليدا حذار من أن تستحمّي والراية حمراء فذلك يعني أنّ البحر هائج وأنّك قد تغرقين. وقد استمرّ الخوف على مرّ السنوات، والآن أيضاً وعلى الرغم من أنّ الماء ورقة شفّافة مشدودة حتّى الأفق لم أجرؤ على الغوص وانتابني القلق. كنت أقول في سري: هيّا اسبحي لا شكّ في أنّهم نسوا الراية على العمود، فيما أنا ألازم الضفة أجسّ الماء بطرف قدمي. بين الحين والآخر كانت أمي تظهر عند أعلى الكثبان وتصرخ بي كما لو كنت لا أزال طفلة: ليدا ماذا تفعلين؟ ألم تري الراية الحمراء؟

في المستشفى عندما فتحتُ عينيّ رأيت نفسي مجدداً لهنيهة حيرى أمام البحر الساكن، لذلك ربما أقنعتُ نفسي لاحقاً أنّ ما ساورني لم يكن حلماً، بل خيالاً يدقّ ناقوس الخطر، وقد استمرّ حتى استيقاظي في قسم الطوارئ. علمتُ من الأطباء أنّني اصطدمتُ بسيارتي بفاصل الطريق من دون أن تكون العواقب وخيمة. والجرح البالغ الوحيد الذي أصابني كان في الورك الأيسر، جرح يصعب تفسيره.

جاء أصدقائي من فلورنسا لعيادتي، وعادت بيانكا ومارتا وحتى جاني. قلتُ لهم إنّي حدتُ عن الطريق بسبب الحلم، لكنّني كنت أعلم علم اليقين أنّ الذنب لم يكن ذنب الحلم. ففي الأصل بدرت مني حركة لا معنى لها، ولأنّه لم يكن لها من معنى قرّرت ألاّ أحدّث أحداً عنها. فأكثر ما يصعب علينا روايته هو ما لا نستطيع نحن أنفسنا فهمه.

2

عندما انتقلت ابنتاي للإقامة في تورنتو حيث كان والدهما يقطن ويعمل منذ سنوات عدّة، اكتشفتُ بدهشة يخالطها الحرج أنني لم أكن أشعر بأي ألم، لا بل كنتُ أشعر بنفسي خفيفةً كما لو كنتُ بذلك قد أنجبتُهما أخيراً. للمرة الأولى منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً لم تلحّ علي ضرورة الاهتمام بهما، بقي البيت مرتباً كما لو أن لا أحد يسكنه ولم أعد أنوء تحت ضغط التسوق والغسيل، والمرأة التي كانت تعينني

منذ سنوات عدّة في تصريف الأعمال المنزلية عثرت على عمل بمقابل أعلى، ولم أشعر بالحاجة إلى من يحل محلّها.

أمّا الالتزامُ الوحيد إزاء الفتاتين فقد كان الاتصالَ مرّة في اليوم لأطمئن على حالها، وعلى ما تفعلانه. على الهاتف كانتا تتحدثان، كما لو كانتا تقيمان بمفردهما، كانتا في الواقع تسكنان مع أبيهما ولكنهما، وقد اعتادتا إبقاءنا منفصلين حتى في الكلام، كانتا تكلّماني كما لو لم يكن موجوداً. وعند سؤالي عن سير حياتهما كانتا تجيبان بمواربة جليّة، أو بانزعاج ملؤه الوقفات المتبرّمة، أو بنبرات مصطنعة اعتادتا اعتمادها بصحبة أصدقائهما. كانتا تتصلان بي بدورهما غالباً، بيانكا على وجه الخصوص كانت تربطها بي علاقة إخضاع متطلّبة، لكنّها كانت تكتفي بأن تسألني إن كان حذاء كحلي يليق بتنورة برتقالية، أو إن كان بإمكاني أن أعثر لها على أوراق تركتها في كتاب وأن أرسلها إليها على وجه السرعة، وإن كنت لا أزال مستعدة لأن تلفظا في وجهي سورات غضبهما وضيقهما على الرغم من القارتين ما بيننا وامتداد السماء التي تفصلنا. كانت المكالمات غالباً مستعجَلة وكانت تبدو أحياناً مصطنعة كما في السينما.

كنت أفعل ما تطلبانه منّي، وأتصرف وفقاً لتوقعاتهما. ولكن نظرا إلى أنّ المسافة كانت تجعل من المستحيل علي مادياً التدخل مباشرة في حياتهما، بات تنفيذ رغباتهما أو نزواتهما عبارة عن مجموعة من الحركات الخفيفة وغير المسؤولة. كان كل طلب يبدو لي خفيفاً، وكان كلُّ واجب يعنيهما عادةً قوامه الود. كنت أشعر أنّ قيودي

نُزعت بأعجوبة، كما لو أنّ مهمّة صعبة بلغت أخيراً خواتيمها ولم تعد تُثقل كاهلي.

شرعت في العمل من غير إيقاع مواقيتهما واحتياجاتهما. كنتُ أصحح ليلاً أطروحات الطلاّب وأنا أستمع إلى الموسيقى، وكنتُ أنام كثيراً عصراً واضعة سدادات من الشمع في أذني، وكنتُ آكل مرّة في اليوم في مطعم أسفل البيت دائماً. تغيّرتُ سريعاً، تغير أسلوبي ومزاجي، تغيّر حتى مظهري الخارجي. في الجامعة كفّ الشبان الأغبياء جدّاً والأذكياء جدّاً عن إثارة انزعاجي. قال لي زميل في إحدى الأمسيات حائراً، وكنت أتردد عليه منذ سنوات عدّة وأنام عنده نادراً، إنّي أصبحت أقلّ شروداً وأكثر كرماً. خلال أشهر معدودة استعدتُ القوام النحيف الذي كان لي في صباي وشعرت بقوة متزنة، بدا لي وكأنني استعدتُ السرعة المناسبة للأفكار. نظرت في إحدى الأمسيات إلى نفسي في المرآة، كنت في السابعة والأربعين من العمر وكنت سأبلغ الثامنة والأربعين بعد أربعة أشهر، غير أنّي رأيت أنّ ضرباً من السحر أسقط عني سنوات كثيرة. لستُ أدري إن أفرحني ذلك، ولكنّه فاجأني بالتأكيد.

كنتُ في تلك الحالة من الراحة غير الاعتيادية عندما حل شهر يونيو فشعرتُ برغبة في قضاء إجازة، وقررتُ الذهاب إلى البحر فور أن أنتهي من الامتحانات والمتاعب البيروقراطية. بحثتُ في شبكة الإنترنت، واستعرضتُ الصور والأسعار، وفي نهاية المطاف استأجرتُ بدءاً من منتصف شهر يوليو وحتى نهاية شهر أغسطس

شقة صغيرة جدا وزهيدة الثمن على ساحل البحر الأيوني. لكنّي لم أتمكن عملياً من السفر إلا في الرابع والعشرين من يوليو، قمتُ برحلة هادئة وقد ملأتُ السيارة في الدرجة الأولى بالكتب التي كنتُ أحتاجها إلى إعداد دروس العام التالي. كان الطقس جميلاً، ومن النوافذ المفتوحة كان يصل نسيم مشبَع بروائح قاحلة، شعرتُ بنفسي حرّة ولم يساورني إحساس بالذنب لذلك.

إلاّ أنّه، وقد بلغتُ منتصف الطريق وفيما كنتُ أملأ الخزان بالبنزين، شعرتُ فجأة بالقلق. راق لي البحر كثيراً في الماضي ولكن منذ ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً كان التعرض للشمس يثير عصبيتي ويتعبني سريعاً. لا شك في أنّ الشقة كانت قبيحة تطل على بقعة زرقاء بعيدة تحيط بها الأبنية الرخيصة. ما كنت لأغمض عيناً بسبب الحر وبسبب أحد الملاهي الليلية التي تبث موسيقى صاخبة. أكملتُ الطريق المتبقية بشيء من الانزعاج تتملكني فكرة أنّني كنتُ سأعمل براحة أكبر لو بقيت في البيت طوال الصيف متنشقة هواء جهاز التبريد في المبنى الساكن.

وصلتُ، وقد تراجعت الشمس عند الغروب. بدت لي البلدة جميلة وكانت للأصوات لكنة محبّبة، وشممتُ روائح طيّبة. كان في انتظاري رجل كهل كثيفُ الشعر أبيضُه، كان ودوداً إنّما باحترام. أراد أولاً أن يقدّم لي القهوة في البار، ومن ثم منعني بابتسامات خالطتها حركات حاسمة من أن أحمل ولو حقيبة واحدة إلى البيت. انحنى ينوء بثقل حقائبي وهو يلهث وصولاً إلى الطابق الثالث والأخير

ووضع المتاع على عتبة شقة روف[1] صغيرة: غرفة نوم، ومطبخ شديد الصغر لا نافذة فيه يتّصل بالحمام مباشرة، وغرفة جلوس فيها نوافذ عريضة، وشرفة تُطل في الغروب على شاطئ تمتد فيه الصخور على شكل ألسنة، وبحر شاسع.

كان الرجل يُدعى جاني ولم يكن مالك الشقة بل أشبه بحارس أو بساعٍ. إلاّ أنّه لم يقبل الإكرامية، لا بل استاء كما لو أنني لم أفهم أنّ ما فعله كان من باب حسن الضيافة. وبعد أن تأكد مراراً أنّني كنتُ راضية عن كل شيء انسحب. وعثرتُ فوق طاولة غرفة الجلوس على طبق كبير مليء بالدراقن، والخوخ، والإجاص، والعنب، والتين. كان الصحن يلمع كما لو كان في لوحةِ طبيعةٍ ميتة.

حملت مقعداً من القش إلى الشرفة حيث جلستُ لبعض الوقت لأراقب المساء وهو يحلّ ببطء على البحر. لسنوات طويلة كان السبب لقضاء إجازة الطفلتين، وعندما كبرتا وأخذتا تجوبان العالم مع الأصدقاء كنت ألازم مكاني منتظرة دائماً عودتهما. ولم تكن تقلقني فقط الكوارث على أنواعها (مخاطر الرحلات الجوية والبحرية، والحروب، والزلازل، وموجات المد) إنّما كذلك هشاشتهما العصبية، والتشنجات المحتملة مع رفاق السفر، والمآسي العاطفية لحب متبادل أو غير متبادل على الإطلاق. كنتُ أريد أن أبقى مستعدة لمواجهة طلبات المساعدة المفاجئة، كنتُ أخشى أن تتهماني بما كنتُ عليه عملياً

(1) استخدمتُ عبارة «شقة روف» لأشير إلى الشقة التي تقع في الطابق الأخير والتي غالباً ما تكون لديها شرفة واسعة. (المترجمة)

أي شاردة أو غائبة منشغلة بنفسي. كفى. نهضتُ وذهبت لأستحمّ.

بعد ذلك شعرتُ بالجوع فعدتُ إلى طبق الفاكهة. واكتشفتُ أنّه تحت المظهر البديع كانت ثمار التين، والإجاص، والخوخ، والدراقن، والعنب قديمة أو مهترئة. تناولتُ سكيناً واقتطعتُ أجزاء كبيرة سوداء غير أنّ الرائحة والطعم أثارا اشمئزازي فرميتُ كل شيء تقريباً في القمامة. كان يمكن لي أن أخرج وأن أبحث عن مطعم ولكني استغنيتُ عن الطعام بسبب التعب، كنت أشعر بالنعاس.

في غرفة النوم كانت هناك نافذتان كبيرتان فأشرعتهما، وأطفأتُ النور. رأيتُ أن برق المنارة في الخارج كان ينفجر في العتمة، بين الحين والآخر، ليشعّ لثوانٍ معدودة في الغرفة. يجب تفادي الوصول إلى مكان مجهول ليلاً، فحدود الأشياء تنتفي فيه. يسهل أن يبدو كل شيء مبالغا به. استلقيتُ على السرير مرتدية المئزر وشعري مبلل، حدّقت إلى السقف في انتظار اللحظة التي سيصبح فيها أبيض جرّاء الضوء، استمعت إلى الهدير البعيد لزورق، وإلى أغنية واهنة تشبه المواء. كنت بلا أطر. استدرتُ نعسة، ومسست شيئا على الوسادة بدا لي غرضاً بارداً كورق شفاف.

أضأت النور. على قماش الوسادة الناصع ظهرت حشرة طولها ثلاثة أو أربعة صنتمترات، بدت كذبابة كبيرة. كانت أجنحتها مؤلفة من عدة أغشية، وكان لونها بنيّاً داكناً، وكانت جامدة. قلت لنفسي: هذا زيز، ربما انفجرت بطنه على وسادتي. مسستُها بطرف المئزر فتحركت وما لبثت أن هدأت في الحال. ذكر، أنثى. بطن الإناث لا

تغطيها أغشية مطاطية، ولا يغنّي فهو أخرس. شعرتُ بالتقزز. الزيز يلسع شجر الزيتون ويجعل المَن يسيل من قشرة شجر الدردار البري. رفعت الوسادة بتؤدة، توجهت إلى إحدى النوافذ ونفضتُ الحشرة. هكذا بدأت إجازتي.

3

في اليوم التالي وضعت في حقيبتي المايوه، والمناشف، والكتب، والوثائق المصورة، والدفاتر، واستقللتُ السيارة، ومضيتُ أبحث عن الشاطئ والبحر على طول الطريق الداخلية المحاذية للشاطئ. بعد انقضاء عشرين دقيقة بان إلى يميني حرج صنوبر ورأيت علامة تشير إلى موقف فتوقفت. تجاوزت حاجز الطريق مثقلة بأمتعتي، وتغلغلت في درب احمرّت من إبر الصنوبر.

أحبُّ رائحة الصمغ كثيراً، وقد قضيتُ فصول صيف عدّة في صغري على شواطئ لم يكن قد التهمها الإسمنت بالكامل وعصابات الكامورّا تماما، وكانت تبدأ حيث ينتهي حرج الصنوبر. تلك الرائحة هي رائحة الإجازة، وألعاب الطفولة الصيفية، كل طقطقة تصدر عن أكواز الصنوبر الجافة، أو كل صوت مكتوم. لون الصنوبر الغامق يذكرني بفم أمي الذي يضحك وهي تكسر الأكواز وتخرج منها الثمار المائلة للصفرة وتناولها لأخواتي اللواتي يطالبن بها ضاجات ليأكلنها، وتعطينيها وأنا أنتظر بصمت، أو تأكلها ملوِّثةً

شفتيها بالغبار الداكن، ثم تقول، لتعلّمني أن أكون أقل خجلاً: لن أعطيكِ شيئاً فأنت أسوأ من كوز صنوبر فج.

كان حرج الصنوبر كثيفاً جدّاً، والشجر متشابكاً، وبدت الجذوع التي استطالت تحت ضربات الريح على وشك أن تقع إلى الخلف خوفاً من شيء ما قادم من البحر. حاذرت ألاّ أتعثر بالجذور اللامعة التي تعبرُ الدرب، وكظمت اشمئزازي من السحالي الغبراء التي كانت تغادر عند مروري بقعَ الضوء لتفرّ باحثة عن ملجأ. سرتُ لأقلّ من خمس دقائق لتظهر بعد ذلك الكثبان والبحر. مررتُ إلى جانب جذوع أوكالبتس معوجّة نبتت في الرمل، وسرت على معبر خشبي بين القصب الأخضر والغار، ووصلتُ إلى مسبح نظيف.

راقَ لي المكان في الحال. طمأنني لطف الرجل الداكن البشرة الجالس إلى الصندوق، وسلاسة مراقب السباحة الشاب الذي لم تنتفخ عضلاته، طويل القامة وشديد النحافة وقد ارتدى كنزة وتبّاناً أحمر ورافقني حتى المظلة. كان الرمل غباراً أبيض، وقد سبحت طويلاً في مياه شفافة، وتشمستُ قليلاً. ومن ثم جلستُ في الفيء إلى كتبي، وعملتُ بهدوء حتى الغروب مستمتعة بالنسيم وبتبدلات البحر السريعة. انقضى النهار بسرعة في مزيج من العمل، والخيال، والراحة حتى أنني قررتُ من يومها العودة دائماً إلى ذاك المكان.

تحوّل كل شيء، في أقل من أسبوع، إلى عادة سلسة. كنت أجتاز حرج الصنوبر وتروق لي طقطقة أكواز الصنوبر التي كانت تتفتح في الشمس، ومذاق بعض الأوراق الخضراء الصغيرة التي بدت أوراق

آس، والقشور التي كانت تنسلخ عن شجر الأوكالبتس. على طول الدرب كنت أتخيل الشتاء، وحرج الصنوبر الجليدي في الضباب، وشجيرة السفندر المدبب تلقي ثماراً حمراء. كان الرجل إلى الصندوق يستقبلني يومياً عند وصولي برضا لبق، كنت أتناول القهوة عند البار، وأشتري زجاجة مياه معدنية. وكان مراقب السباحة، ويُدعى جينو. ومن المؤكد أنه كان طالباً، يفتح لي المظلة والكرسي الشيز لونغ بهمّة لينسحب بعد ذلك إلى الظل وقد افترّت شفتاه السميكتان فيما تسعى العينان لأن تسطّرا بقلم الرصاص الصفحات في مجلد كبير لتقديم امتحان ما.

كانت رؤية الفتى تثير فيّ العطف. عادة كنت أغفو وأنا أجفف نفسي تحت الشمس، ولكنني أحياناً لم أكن أنام، وكنت أكاد لا أغمض عينيّ مراقبة إياه بودّ، حذَرَ أن يراني. لم يكن يبدو مرتاحاً، وغالباً ما كان يلوي جسده الجميل والعصبي، وبإحدى يديه كان يشدّ شعره الحالك السواد وكان يحك ذقنه. كان سيروق جدّاً لابنتيّ، خاصة مارتا التي كانت تقع بسهولة في حب شبان نحيفين وعصبيين. أما أنا فلست أدري. كنت قد فطنت منذ فترة طويلة إلى أنّني كنت أعرف كل شيء عنهما ولا شيء عنّي. حتّى جينو كنت أنظر إليه الآن من خلال تجارب بيانكا ومارتا، وفقاً للأذواق والأهواء التي أتخيلها لديهما.

كان الفتى يدرس، ولكنّ لا بد أنّه ذو لواقط مستقلة عن حاسة النظر. فما إن أتحرك لأنقل الكرسي من الشمس إلى الظل حتى كان

يهبّ على قدميه سائلاً إياي إن كنت أحتاج إلى المساعدة. كنت أبتسم مومئة أنْ كلاّ، فأين الصعوبة في نقل الكرسي؟ كان حسبي أن أشعر بأنني محمية، لا مهلَ زمنية ينبغي أن أتذكرها، ولا طوارئَ يتعين علي أن أواجهها. لم يعد أحد يعتمد على عنايتي وأنا لم أعد أخيراً أثقل على نفسي.

4

انتبهتُ لاحقّاً إلى الأم الشابة وابنتها. لست أدري إن كانتا هناك منذ يومي الأول على البحر أو أنهما ظهرتا في ما بعد. في الأيام الثلاثة أو الأربعة التي تلت وصولي كنت لا أنتبه إلى مجموعة صاخبة من أهالي نابولي، أطفالٌ وكبار، رجل في الستين من العمر وبتعبير شرير على وجهه، أربعة أو خمسة فتيان كانوا يتعاركون بشراسة في الماء وعلى الرمل، امرأة بدينة وقصيرة القدمين وكبيرة الثديين لم تتجاوز الأربعين ربما غالباً ما كانت تتنقل بين الشاطئ والبار وبالعكس وهي تجر بصعوبة بطناً ممتلئة، وقد امتد القوس الكبير والعالي بين قطعتي المايوه. كانت تجمعهم كلهم صلة قربى، آباء، وأجداد، وأحفاد، وأولاد أعمام، وأصهار وكانوا يضحكون ضحكات رنانة. كانوا يصرخون بأسماء بعضهم البعض صرخات ممتدّة، يتقاذفون جملاً تعجبية أو جملاً متواطئة، وأحياناً كانوا يتخاصمون: مجموعة عائلية متّسعة تشبه تلك التي كنت أنتمي اليها عندما كنت طفلة،

المزاح نفسه، والملاطفات المفرطة نفسها، ونوبات الغضب نفسها.

رفعتُ في أحد الأيام نظري عن الكتاب ورأيتهم للمرة الأولى، المرأة في ريعان الشباب والطفلة. كنت أعود من الضفة إلى المظلة، هي التي لم تتجاوز العشرين من العمر وقد أحنت رأسها. أما الصغيرة، فقد رفعت رأسها وهي تتأملها مسحورة. كانت في الثالثة أو الرابعة من العمر وقد ضمّت دمية كما تحمل أمٌّ طفلها بين ذراعيها. والمرأة الحامل تصرخ في حُنْق بكلام ما من تحت المظلة متوجهة إليهما. وامرأة بدينة شعرها شائب في كامل ثيابها وفي الخمسين من العمر، قد تكون الوالدة، تتحرك منزعجة مُعرِبة عن استيائها من أمر ما. إلاّ أنّ الفتاة بدت صمّاء بكماء، فظلت تحاور الطفلة وواصلت سيرها قادمة من البحر بخطى وئيدة مخلّفة على الرمال ظلال أقدامها الداكنة.

كانت الفتاة والطفلة أيضاً جزءاً من العائلة الكبيرة الضاجّة، لكن الأم الشابة بدت لي، وقد ظهرت عن بعد بجسدها النحيف، والمايوه في قطعة واحدة، وقد اختارته بذوق، والعنق الرفيع، وشكل الرأس الجميل بشعره الطويل والمجعد والأسود اللامع، والوجه الشبيه بوجه هندية، والوجنتين الناتئتين، والحاجبين المشذبين، والعينين اللوزيتين، غريبةً عن المجموعة، جسماً شذّ لسبب غامض عن القاعدة، ضحيةَ عملية خطف أو تبديل بين طفلين سلّمت بمصيرها.

مُذْ ذاك أخذت أنظر إليهم بين الحين والآخر.

كانت الطفلة تعاني من خلل ما، لست أدري ما كان بالضبط، من حزن طفولي ربما أو من مرض صامت. كان وجهها يطالب الأم

باستمرار بأن تبقى معها: رجاءٌ لا بكاء ولا نزوات فيه، ولم تكن الأم تخذلها. لاحظت مرة العناية اللطيفة التي توليها إياها، وهي تدهن جسمها بالكريم. وقد لفتني في مرة أخرى الوقت الطويل الذي كانت تقضيه الأم وابنتها معاً في الماء، وقد عانقت إحداهما الأخرى، فيما لفّت الثانية ذراعها حول عنق الأخرى. كانتا تتضاحكان وهما تستمتعان بالتصاق جسديهما، ولمس أنف الواحدة أنف الأخرى، ونفث نوافير من الماء، وتقبيل إحداهما الأخرى. في إحدى المرات رأيتهما تلعبان بالدمية متسليتين أيّما تسلية، وهما تُلبِسانها وتخلعان عنها ثيابها متظاهرتين بأنهما تدهنانها بكريم الحماية من الشمس. كانتا تجعلانها سابحة في دلو أخضر، وتجففانها وهما تفركانها كي لا تصاب بنزلة برد، وكانتا تحفّانها بصدريهما كأنهما ترضعانها أو كانتا تطعمانها طعاماً تصنعانه من الرمل. كانتا تضعانها إلى جانبيهما على الرمل، مستلقية على منشفتهما. لئن كانت الفتاة في حد ذاتها جميلة فإنّه كان ثمة ما يميزها في طريقتها في ممارسة أمومتها، ما كان يبدو كما لو أنّها لا ترغب في شيء سوى تلك الطفلة.

لا يعني ذلك أنّها لم تكن مندمجة في مجموعتها العائلية الكبيرة تلك. كانت تتحدث مع المرأة الحامل بسرعة من غير أن تلتقط أنفاسها، وتلعب الورق مع بعض الشبان الذين كانوا في مثل سنها، وقد اسودّوا جراء الشمس، كانوا من الأقارب كما أظن، كما كانت تتنزه على طول الشاطئ مع الرجل المسنّ الذي بدا شرساً (والدها ربما؟) أو مع شابات صاخبات، من شقيقات، وبنات عم،

ونسيبات. لم يبدُ لي أنّ لها زوجاً أو شخصاً يُستدلّ منه أنّه أب الطفلة. غير أنّني لاحظت أنّ أفراد العائلة جميعهم كانوا يهتمون بها وبالطفلة بمحبة. فكانت السيدة الخمسينية الشائبة الشعر والبدينة ترافقها إلى البار لشراء المثلجات للطفلة. وكان الفتية بنداء حاسم منها يكفّون عن العراك ولو متأففين ويذهبون ليجلبوا لها الماء والطعام، وكل ما يلزمها. وما إن تبتعد الأم مع ابنتها لأمتار معدودة عن الشاطئ على متن زورق صغير أحمر وأزرق، حتى تصيح المرأة الحامل نينا، لينو، نينيتّا، لينا وتهرع إلى الشط لاهثة مثيرة تحفز مراقب السباحة الذي كان يهبّ واقفاً ليراقب الوضع على نحو أفضل. في إحدى المرات التي اقترب فيها شابان أرادا التحدث معها تدخل أبناء أعمامها في الحال، وبدأ التدافع وتبادل الشتائم، وكاد يسفر ذلك عن مشادة.

لبعض الوقت لم أكن أعرف ما إذا كانت الأم أو الابنة تُدعى نينا، نينو، نينيه، كانت الأسماء كثيرة وصعب علي أن أتيقن من ذلك، نظرا لشبكة النداءات الكثيفة، ومن ثم، ولشدة ما سمعت الأصوات والنداءات، فهمت أن نينا هي الأم. لكن الأمر كان أكثر صعوبة مع الطفلة فقد اختلط الأمر عليّ. ظننت في البداية أنّ لها اسم تصغير مثل ناني أو نينا أو نينيلا، ولكنني فهمت لاحقّاً أن تلك كانت أسماء الدمية التي لم تكن الصغيرة تفارقها البتة، والتي كانت نينا تهتم بها كما لو أنها كائن حيّ، كما لو كانت ابنة ثانية. الطفلة كانت تُدعى في الواقع إيلينا، لينو وكانت أمها تدعوها دائماً إيلينا فيما كانت العائلة تدعوها لينو.

لست أدري لم سجلتُ تلك الأسماء في دفتري إيلينا ناني نينا ليني. ربما كانت تروق لي طريقة لفظ نينا لها. كانت تتحدث مع الطفلة ومع لعبتها بلهجة محببة، بلهجة أهل نابولي التي أحبها، ذاك المزيج الحنون من الدعابة والرقة. كنت مسحورة. للّغاتِ في نظري عُقار سري يزبد بين الحين والآخر ولا يجدي معه الترياق نفعاً. أذكر اللهجة المحلية في فم أمي عندما كان الإيقاع الناعم يختفي فتصرخ بنا وقد سَمّمها الاستياء: سُقِطَ في يدي معكم، عجزت. أوامر، وصراخ، وشتائم، وامتداد الحياة في كلماتها كشريان مهترئ ما إن يُمس حتى يطيح بألمٍ بكلِّ رزانة. مرة، مرتين، ثلاث مرات هددتنا نحن بناتها بأنها سترحل، ستستيقظن صباحاً ولن تجدنني. كنت أفيق يومياً وأنا أرتجف من الخوف. في الواقع كانت هناك دائماً، أمّا في الكلمات فكانت دوما تختفي من البيت. تلك المرأة، نينا، بدت مرتاحة وشعرت بالحسد.

5

كان أسبوع إجازة قد انقضى بالكامل تقريباً: طقس جميل، وريح خفيفة، والكثير من المظلات الفارغة، لهجاتٌ من مختلف أنحاء إيطاليا ممزوجة باللهجة المحلية وبعض اللغات الأجنبية يتلفظ بها أشخاص جاؤوا ليتمتعوا بالشمس.

حلّ يوم السبت، فاكتظ الشاطئ، وقد اجتاحت مساحةَ الظل

والشمس التي أشغلها برّاداتٌ محمولة، ودلاء، ورفوش، وكراسيّ، ودواليب السباحة، ومقابض الكرة الطائرة، عدلتُ عن القراءة وبحثت بين الجموع عن نينا وإيلينا كما لو كانتا مسرحية لتبديد الوقت.

صعُب عليّ العثور عليهما. أدركت أنّهما جرّتا كرسي الشيز لونغ إلى مكان على بعد أمتار معدودة من البحر. كانت نينا مستلقية على بطنها في الشمس بقربها في الوضعية نفسها بدا لي أنّني لمحت الدمية. أمّا الطفلة، فكانت تذهب حتى الماء حاملة مرشّة من البلاستك الأصفر، تملؤها ماء وتمسكها بكلتا يديها لثقلها، وهي تتأفف وتضحك. كانت تعود نحو أمّها لترشّ جسمها بالماء حتى تخفّف من حرارة الشمس. عندما تفرغ المرشّة كانت الطفلة تعاود ملأها، المسار نفسه، والتعب نفسه، واللعبة نفسها.

ربما لم أنم جيداً، ربما ساورتني أفكار بشعة لم أنتبه إليها لكن المؤكد أنّ رؤيتهما في ذاك الصباح أثارت انزعاجي. إيلينا مثلاً بدت لي بليدة العقل لفرط دقتها: كانت ترش الماء على كاحليها أولاً، ومن ثم كاحلَي اللعبة، وكانت تسأل كلاَ منهما إن كان ذلك يكفي، وكانت الاثنتان تجيبان بلا، فكانت تعاود الذهاب. أمّا لينا، فقد بدت متصنعة: كانت تموء من اللذة، وتكرر مواءها بنبرات متباينة كما لو كان المواء يصدر من فم الدمية، وهي تتنهد قائلة: المزيد، المزيد. ساورني شك في أنّها تعرض دورها كأم شابة وفاتنة لا محبة بابنتها بل من أجلنا نحن، الجمهور على الشاطئ، جميعنا نساء ورجالاً، شباناً وكهولاً.

رُشّ جسمها وجسم الدمية طويلاً بالماء. راحت تسطع من الماء وقد غسلت الإبر المضيئة المنبثقة من المرشّة شعرها أيضاً الذي التصق برأسها وجبينها. ناني، أو نيلي، أو نينا بالمثابرة نفسها غُسلت الدمية غير أنّها كانت تمتص كمية أقل من الماء الذي كان يسيل على بلاستك كرسي الشيز لونغ الأزرق ليبلغ الرمل فيسودّ.

كنت أراقب الطفلة في ذهابها ومجيئها ولست أدري ما الذي ضايقني، ربما اللعبة المائية أو المتعة التي كانت تستعرضها نينا في الشمس. أو ربما الأصوات، نعم تحديداً الأصوات، التي كانت تنسبها الأم والطفلة للدمية. تارةً كانتا تتناوبان لجعلها تتكلم، وطوراً كانتا تفعلان ذلك معاً لتختلط النبرة الطفولية المصطنعة للراشدة بنبرة الكبار المصطنعة للطفلة. كانتا تتخيلان أنه الصوت نفسه الذي كان يصدر من حلق واحد من شيء جامد في الواقع. ولكنني لم أكن بطبيعة الحال قادرة على الدخول إلى خيالهما، كان ذلك الصوت المزدوج يثير فيّ تقززاً متصاعداً. طبعاً كنتُ هناك على مسافة منهما فما همّي، كان بمقدوري أن أتابع اللعبة أو أن أهملها، كانت مجرد تزجية للوقت. إنّما لا، كنت أشعر بالضيق كما لو كنت أمام عمل غير متقن، كما لو أنّ جزءاً منّي كان يطالب بعبثية أن تقرّرا أخيراً إعطاء الدمية صوتاً مستقراً، وثابتاً، إما صوت الأم، وإمّا صوت الابنة، فلتكفّا عن التظاهر أنّهما واحد.

كان الأمر أشبه بتحول نكزة خفيفة، لشدّة تفكيرنا فيها، إلى ألم لا يُطاق. ضقتُ ذرعا. حتى إنّه تملكتني رغبة في أن أقف، وأن أسير

موارِبة حتى كرسي لعبهما، وأتوقف لأقول كفى، أنتما لا تجيدان اللعب. غادرت مظلتي فعلاً لهذا الغرض، لم أعد قادرة على تمالك نفسي. لم أنبس طبعا ببنت شفة، تجاوزتهما وأنا أنظر أمامي. تعللت بأنّ الحر شديد، وأنني لطالما كرهت الأماكن المكتظة فالجميع يتكلم بنبرة متموجة، ويتحرك للهدف نفسه، ويفعل الأشياء نفسها. أسقطت على الشاطئ عصبيتي المفاجئة في نهاية الأسبوع، وذهبت لأضع قدمي في الماء.

6

حوالي الظهر طرأ حدث جديد. كنت أتأرجح في الظل بين النوم واليقظة على الرغم من أنّ الموسيقى التي كانت تصدر من المسبح كانت صاخبة عندما سمعت المرأة الحامل تنادي نينا كما لو أرادت أن تعلن لها أمراً استثنائياً.

فتحتُ عينيّ فلاحظت أنّ الفتاة حملت بين ذراعيها ابنتها مشيرة بفرح ظاهر إلى شيء ما أو أحد ما خلفي. استدرتُ فرأيت رجلاً ربعة القامة وممتلئ الجسم تتراوح سنه بين الثلاثين والأربعين، جاء مجتازاً المعبر الخشبي حليق الشعر، يرتدي كنزة ضيقة جدّاً سوداء احتوت بطناً ثقيلة فوق مايوه أخضر. تعرّفت عليه الصغيرة وسلّمت عليه، لكن بعصبية، وهي تضحك، وتخبّئ وجهاً متشنج الملامح بين عنق أمّها وكتفها. حافظ الرجل على جديته وبالكاد ألقى التحية بيده، كان

وجهه جميلاً، وعيناه متقدتين. توقف من دون استعجال ليسلّم على مدير المسبح، وربّت بودّ على كتف مراقب السباحة الشاب الذي كان قد هرع فوراً، وفي هذه الأثناء توقف الموكب الذي رافقه والمؤلف من رجال مرحين ارتدوا جميعاً ثياب السباحة، وحملوا حقائب الكتف، أو براداً محمولاً، أو علبتين أو ثلاث علب يُفترض أنّها هدايا بحكم ما عليها من الشرائط والعقد. عندما نزل الرجل أخيراً إلى الشاطئ انضمت إليه نينا مع الطفلة موقفة الموكب الصغير مجدداً. انتزع من ذراعيها أولاً، وقد حافظ على جديته وحركاته الهادئة، إيلينا التي تمسّكت بعنقه وهي تقبّله على وجنتيه قبلاً كثيرة قلقة، وأمسك، من ثم، وهو ما يزال يدير خداً للصغيرة، بِنينا من خلف رقبتها كما لو كان يجبرها على أن تنحني، فقد كان أقصر قامة منها بما لا يقلّ عن عشرة صنتمترات، وطبع قبلة سريعة على شفتيها كفريضة متكلفة يفرضها مالك.

حدستُ بأنّ والد إيلينا قد وصل، زوج نينا. بدا بين أهالي نابولي وكأنّ العيد قد حلّ فجأة، فقد احتشدوا حوله حتى كادوا يمسّون مظلتي. رأيت الطفلة تنزع ورق الهدايا، فيما نينا تجرّب قبعة قبيحة من القش. ومن ثم أشار القادم الجديد إلى شيء في البحر، إلى زورق أبيض. تجمّع الرجل ذو التعبير الشرير، والفتية، والمرأة الشائبة الرأس والبدينة، والأقارب، والقريبات على طول الضفة وهم يصرخون ويلوحون أياديهم بالتحية. تجاوز الزورق خط الطوافات الحمراء ومرّ من بين السابحين، وتجاوز خط الطوافات البيضاء

ووصل ومحركه دائر إلى الأطفال والمسنين الذين يسبحون في متر ماء. قفز في الحال رجال مكتنزون شاحبو الوجوه، ونساء قبيحات الثراء، وفتية بُدُن. عناق وقبلات على الخدود، أضاعت نينا قبعتها التي أطاح بها الهواء. أمّا زوجها، الذي كان كحيوان جامد يهبّ عند أوّل إشارة خطر بقوة وتصميم غير متوقعيْنِ وعلى الرغم من أنّه كان يحمل الطفلة بين ذراعيه، فقد التقط القبعة بسرعة قبل أن تسقط في الماء وأعادها إليها. اعتمرت الطفلة قبعتها بصورة أفضل، وبدت القبعة فجأة جميلة، فشعرت بوخزة انزعاج يصعب تفسيرها.

تعاظمت الفوضى، كان من الواضح أنّ آمال الواصلين الجدد قد خابت أمام توزيع المظلات، فاستدعى الزوج جينو، وجاء أيضا مدير المسبح. ما فهمته هو أنّهم كانوا يريدون أن يجلسوا معاً، المجموعة العائلية المقيمة وتلك الزائرة، ليشكلوا متراساً متماسكاً من الأسرّة، وكراسي الشيز لونغ، والطعام، والأطفال، والكبار الفرحين. كانوا يشيرون ناحيتي، حيث توجد مظلتان لم يجلس تحتهما أحد، وكانوا يؤشرون كثيراً، لا سيما المرأة الحامل التي ما لبثت أن طلبت إلى الجيران أن ينتقلوا منزلقين من مظلة إلى أخرى كما يجري في السينما عادة عندما يرجوك أحدهم أن تفسح له المكان مخلياً بضعة مقاعد.

ساد جو من الفرح. كان السابحون مترددين، فما كانوا يرغبون في الانتقال حاملين أغراضهم، إلاّ أنّ فتية العائلة النابوليتانية كانوا قد شرعوا في نقلها بودّ، حتى إنّ أولئك بدأوا في النهاية ينتقلون بكل سرور تقريباً.

فتحتُ كتاباً، إلاّ أنّي ألفيت نفسي داخل شبكة من الأحاسيس المريرة التي كانت تزداد حدّة عند كل صوت، ولون، ورائحة تصطدم بها. كان أولئك الناس يضايقونني. ولدتُ في أجواء لم تكن بالمختلفة، أعمامي، وأبناؤهم، ووالدي كانوا هكذا ودودين بتسلط. متكلفون واجتماعيون جدّاً في الغالب، وكان كل سؤال يصدر من أفواههم أشبه بأمر يكاد لا يغلفه الودّ الزائف وكانوا عند الحاجة يعرفون كيف يصيرون عدائيين وعُنُفاً أفظاظاً. كانت أمي تخجل من انتماء أبي والأقارب إلى العامة، كانت تريد أن تكون مختلفة، وكانت تلعب داخل ذاك العالَم دور السيدة الأنيقة والطيبة، ولكن القناع يسقط عند أول مواجهة فتتبنى بدورها سلوك الآخرين ولغتهم بعنف لا يختلف عن عنفهم. كنت أراقبها مندهشة وخائبة الأمل، وفي نيّتي ألاّ أشبهها وأن أصبح مختلفة بالفعل مثبتة لها بذلك أنّه لا طائل، لا بل من السيء إخافتنا بكلامها ذاك أي قولها لن تروني أبداً، أبداً بعد اليوم، على العكس كان يجب أن تتغير بالفعل وأن تغادر البيت، وأن تتركنا، وأن تختفي فعلاً. كم كنتُ أتألم من أجلها ومن أجلي، وكم كنتُ أخجل لأنني خرجت من رحم شخص تعس كرحمها. لقد ضاعفت تلك الفكرة، هناك في فوضى الشاطئ، عصبيتي فتعاظم ضيقي إزاء تصرف أولئك الناس بالإضافة إلى شيء من القلق أصابني.

إلاّ أنّ خللاً ما قد طرأ على عملية الانتقال تلك. كانت ثمة عائلة لم تعرف المرأة الحامل كيف تخاطبها، لغة أخرى، أجانب أرادوا البقاء تحت مظلتهم. حاول الفتية والأقارب داكنو البشرة إقناعهم،

وكذلك الرجل المقطب الجبين، بلا طائل. ومن ثم تنبهتُ إلى أنّهم كانوا يتكلمون مع جينو وينظرون ناحيتي. جاء مراقب السباحة والمرأة الحامل صوبي كما لو كانا يشكلان وفداً.

أشار الشاب، بحرج إلى الأجانب -الأب، والأم، وطفلين ذكرين صغيري السن- دعاهم الألمان، وسألني إن كنت أعرف لغتهم، وإن كنت أوافق على أن أكون المترجمة، فيما أضافت المرأة بلهجتها المحلية، وقد أبقت على يد خلف ظهرها بينما كانت تدفع إلى الأمام البطن العارية، أنّه يتعذر فهم أولئك، وأنّه يتعين علي أن أقول لهم إن الأمر يقتصر فقط على تبديل المظلات، لا أكثر ولا أقل، للسماح لهم بأن يجلسوا معاً أصدقاءَ وأقاربَ، إذ كانوا يقيمون حفلة.

أجبت جينو مومئة ببرود بالموافقة، وتوجهت لأتكلم مع الألمان فتبين أنّهم هولنديون. شعرتُ بنظرات نينا الموجهة إليّ وتحدثتُ بصوت عالٍ ملؤه الثقة. ومنذ أولى الكلمات ساورتني الرغبة، لست أدري لمَ، في أن أستعرض مهاراتي فتبادلت الحديث بمتعة. اقتنع رب العائلة، وعاد جو الصداقة، ليسود فتآخى الهولنديون وأهل نابولي. عندما رجعت إلى مظلتي مررتُ أمام نينا عمداً، ورأيتها للمرة الأولى عن كثب. بدت لي أقلَ جمالاً، وأقلّ شباباً، كما أنّ الشعر عند منبت ساقيها لم يُنزع كما يجب، وكانت إحدى عينَي الطفلة التي تحملها بين ذراعيها دامعة ومحمرة جدّاً فيما كان جبينها مليئاً بالبثور جرّاء التعرق، أمّا الدمية فكانت بشعة وقذرة. عدت إلى مكاني، بدوتُ هادئة ولكنّني كنتُ في غاية الاضطراب.

حاولت القراءة مجدداً من غير أن أفلح في ذلك. فكرتُ، لا بما قلته للهولنديين بل بالنبرة التي لجأت إليها معهم. ساورني شك في أن أكون قد تصرفت من غير أن أشاء ذلك كرسولة لتلك الفوضى المتسلطة، وأن أكون قد نقلت إلى لغة أخرى فحوى الفظاظة. كان الغضب قد تملكني إزاء أهل نابولي، وإزاء نفسي. لذا عندما أشارت إليّ المرأة الحامل بتعبير انزعاج من وجهها متوجهة إلى الفتية والرجال وجينو صارخة: هيا فالسيدة أيضاً ستنتقل، أليس كذلك سيدتي، ألن تنتقلي؟ أجبت بنبرة حادة حاسمة وقتالية: لا أنا مرتاحة هنا، المعذرة ولكني لا أرغب إطلاقاً في الانتقال.

7

مضيتُ عند الغروب كعادتي لكنّي كنت متوترة أشعر بالمرارة. بعد رفضي أصرّت المرأة الحامل عليّ مستخدمةً نبرة تعاظمت العدائية فيها، وجاء الرجل المسن ليقول لي جملاً من قبيل: ماذا يمكن أن يكلّفك ذلك، اليوم تسدين خدمة لنا، وغداً نسدي لك خدمة، إلاّ أنّ الأمر استمر لبضع دقائق فقط، ربما لم تتح لي الفرصة لأقول مرة أخرى بوضوح لا مكتفية بأن أومئ برأسي ومن ثم طُويت القضية بجملة حادة تلفظ بها زوج نينا، كلمات لفظها عن بعد إنّما بقوة، قال كفى نحن مرتاحون هكذا، دعوا السيدة وشأنها، فانسحب الجميع، وكان مراقب السباحة الأخير بينهم الذي تمتم جملة من الاعتذارات

ليعود إلى موقعه.

طوال مكوثي على الشاطئ تظاهرت بأني أقرأ. في الواقع كنت أشعر كما لو أن لهجة العشيرة، وصراخها، وضحكاتها تضخمت، وكان ذلك يمنعني من التركيز. كانوا يحتفلون بحدث ما، ويأكلون، ويشربون، ويغنون، بدا كأنّهم يخالون أن لا أحد سواهم على الشاطئ، أو أنّ دورنا الوحيد هو أن نَسعَد لسعادتهم. ومن المتاع الذي نقلوه على متن الزورق خرج كل ما يخطر ببال طوال ساعات، غداء فاخر، ونبيذ، وحلوى، ومشروبات كحولية حلوة. لم يعد أحد يلقي نظرة باتّجاهي، لم يتلفظ أحد بأي عبارة قد تُستشفّ منها السخرية. فقط عندما ارتديت ثيابي غادرت المرأة الكبيرة البطن المجموعة متوجهة نحوي. قدّمت إلي طبقاً يحتوي قطعة من الكعكة المثلجة بلون التوت البري.

«اليوم عيد ميلادي» قالت بجدية.

«عيد ميلاد سعيد، كم بلغتِ من العمر؟»

«اثنين وأربعين عاماً»

نظرت إلى بطنها وإلى الصرة المنتفخة كعين.

«بطنك تكوّرت جيداً»

جاء تعبيرها راضياً.

«إنها طفلة. لم أرزق أبناء وها نحن الآن»

«كم تبقى لك؟»

«شهران. قريبتي أنجبت ابنتها في الحال، أمّا أنا فقد تعيّن علي أن أنتظر ثماني سنوات».

«هذه الأمور تحدث عندما يكون مقدراً لها أن تحدث، شكراً وأطيب التمنيات مجدداً».

هممتُ بأن أعيد إليها الطبق بعد أن تناولت لقمتين غير أنّها لم تكترث بذلك.

«هل لديك أبناء؟»

«ابنتان»

«هل حملتِ بسرعة؟»

«عندما أنجبتُ الأولى كنت في الثالثة والعشرين»

«إنهما كبيرتان»

«إحداهما في الرابعة والعشرين والأخرى في الثانية والعشرين».

«تبدين أصغر سنّاً، قريبتي تؤكّد أنّك لم تتجاوزي الأربعين»

«شارفت على الثامنة والأربعين»

«كم أنت محظوظة لبقائك على جمالك. ما اسمك؟»

«ليدا»

«نيدا؟»

«ليدا»

«أنا أُدعى روزاريا»

ناولتها الطبق بإصرار أكبر فأخذته.

«كنت عصبية بعض الشيء» برّرت تصرفي غير مقتنعة.

«البحر مضرّ أحياناً أو ربما ابنتاك تثيران قلقك؟»

«الأبناء دائماً مبعث قلق».

استودع بعضنا بعضاً، وتنبهت إلى أنّ نينا كانت تنظر إلينا. عاودت اجتياز حرج الصنوبر متجهمة فقد كنت أشعر بالذنب. ما كان سيكلفني أن أنتقل إلى مظلة أخرى؟ الآخرون فعلوا ذلك بمن فيهم الهولنديون فلِم رفضتُ أنا؟ تعالٍ وادّعاء. دفاع عن النفس أمام الراحة المتأملة، نزعة المثقفين في إعطاء دروس في المدنية. غباء. كنت قد أوليت الكثير من الانتباه لِنينا، فقط لأنني كنت أشعر بها أكثر قرباً من حيث الجسد، فيما لم أمنح روزاريا ولو حتى نظرة واحدة وقد كانت قبيحة ولا تدّعي شيئاً. كم مرةٍ نادوا اسمها ولم أتنبه إلى ذلك! أبقيتها خارج دائرة انتباهي، بلا فضول، كصورة مجهولة لأنثى تعرض حملها بجلافة. كنت مجرد امرأة سطحية. وماذا عن تلك الجملة: «الأبناء دائماً مبعث قلق». جملة قلتُها لامرأة تستعد لتضع أحد هؤلاء، يا للغباء. على الدوام كلمات ازدراء، أو كلمات مشكّكة أو ساخرة. صرخت بي بيانكا يوماً وهي تبكي: تشعرين دائماً أنّك الأفضل، أمّا مارتا فقالت: لماذا أنجبتنا إن كنتِ تتذمرين دائماً منّا؟ شظايا كلمات، مجرد مقاطع لفظية. تحلّ دائماً تلك اللحظة التي يقول لك فيها الأبناء بغضب واستياء لماذا وضعتنا، كنت أسير مستغرقة في التفكير. اصطبغ حرج الصنوبر بتدرجات الليلكي، كانت الريح تهب. سمعت خلفي صريراً، ربما صوت خطوات، استدرت، سكون.

استأنفتُ السير. تلقيت ضربة في الظهر، ضربة عنيفة كما لو ضُربت بعصا بليار. صرختُ جرّاء الألم والمفاجأة معاً، استدرت

وقد انقطعت أنفاسي، فرأيت كوز صنوبر كبير ومغلق بحجم قبضة يتدحرج أرضاً. كانت ضربات قلبي قد تسارعت، فركت بقوة ظهري لأطرد الألم. لم أستعد أنفاسي، نظرت إلى الجنبات حولي، وشجر الصنوبر فوقي، وقد تلاعبت به الريح.

8

ما إن وصلت إلى البيت حتى خلعت ثيابي وتفحصت نفسي في المرآة. كنت أحمل بين ضلوعي بقعة مُزْرَقّة بدت أشبه بالفم وأطرافها داكنة، وهي حمراء في الوسط. حاولت إيصال أصابعي إليها، كانت تؤلمني. عندما تفحصت القميص وجدت آثارالصمغ الدبقة.

ولكي أهدّئ من روعي، قررت التوجه إلى البلدة لأتنزه وأتعشى خارج المنزل. من أين جاءت تلك الضربة؟ بحثت في ذاكرتي ولكني لم أهتدِ إلى نتيجة تُذكر. لم أستطع أن أجزم ما إذا كان كوز الصنوبر قد أُلقي علي عمداً من إحدى الجنبات، أو أنّه سقط من إحدى الشجرات. ضربة مفاجئة هي في نهاية المطاف مجرد دهشة وألم. عندما كنت أتخيل السماء، وأشجار الصنوبر كان كوز الصنوبر يسقط من أعلى، وعندما كنت أفكر في الحرج والجنبات كنت أرى خطاً أفقياً رسمته الرصاصة، كوز الصنوبر الذي شقّ الهواء حتى وصل إلى ظهري.

مساء السبت سارت في الطريق جموعُ أشخاص أحرقتهم

الشمس، أُسَر بأكملها، نساء يدفعن عربات أطفال، وآباء ضجرون أو خارجون عن طورهم، أزواج من الشبان المتعانقين أو من الشيوخ الذين يشبكون أياديهم. كانت رائحة المتشمسين تختلط برائحة 'غزل البنات'[1]، واللوز المحمّص. الألم المغروز كجمرة ملتهبة بين ضلوعي جعلني لا أفكر إلاّ بما جرى لي.

شعرت بالحاجة إلى الاتصال هاتفياً بابنتيّ، لأروي لهما الحادث. أجابت مارتا وشرعت تتكلم كعادتها بسرعة وبنبرة حادة. بدا لي أنّها كانت تخشى المقاطعة أكثر من العادة، أو سؤالاً أضمّنه فخاً، أو لوماً، أو ببساطة بأن أعكس من جانبي نبرتها المبالغ فيها، نبرتها الفرحة المشككة لتصبح نبرة جادّة تفرض عليها أسئلة حقيقية وأجوبة حقيقية. حدّثتني مطولاً عن حفل أُجبرت هي وأختها على الذهاب إليه لم أعلم متى بالضبط، في المساء نفسه أو في اليوم التالي. كان أبوهما يحرص على ذلك، كان هناك أصدقاء له، ليس فقط زملاء من الجامعة بل كذلك أشخاص يعملون في التلفزيون، أشخاص مهمون كان يود أن يبيّض وجهه أمامهم، وأن يظهر أنّه كان لديه، وعلى الرغم من أنّه لم يبلغ الخمسين بعد، ابنتان كبيرتان ومتعلمتان وجميلتان. تكلّمت، وتكلّمت، ومن ثم كالت اللوم للمناخ. احتجّت قائلة إنّ كندا بلد لا يستطيع المرء العيش فيه صيفاً ولا شتاءً. لم تسألني حتى عن أحوالي، أو ربما سألتني ولكنها لم تتح لي الفرصة لأجيبها. على الأرجح أنّها لم تذكر أباها البتّة، بل شعرتُ أنا بذلك بين كلمة وأخرى. في الأحاديث

(1) حلوى القطن. (المترجمة)

مع ابنتيّ أسمع كلمات وجملاً مكتومة. كانتا تغضبان أحياناً قائلتين «ماما لم أقل ذلك أبداً، أنتِ من يقول ذلك، لقد اخترعتِ القصة». ولكنني لا أخترع أي شيء، يكفيني أن أستمع، فما لا يُقال أبلغ ممّا يُقال. ذلك المساء وفيما كانت مارتا تشطّ بكلمات تطلقها كرشاش، فكرتُ للحظة أنّها لم تولد، وأنّها لم تخرج يوماً من رحمي، أو أنّها في بطن امرأة أخرى، روزاريا مثلاً، وأنّها كانت ستولد بمظهر آخر، بردّات فعل أخرى. ربما كثر ما تمنّت هي ذلك في سرّها، ألاّ تكون ابنتي. كانت تتحدث بعصبية عن نفسها من قارة بعيدة. كانت تحكي عن شعرها الذي يجب أن تغسله باستمرار فكانت تعجز دائماً عن تسريحه، وعن الحلاّق الذي أتلفه لذا ما كانت لتذهب إلى الحفلة وقد صُفّف شعرها على هذا النحو، ما كانت لتخرج من البيت في تلك الحالة، كانت بيانكا ستذهب وحدها فشعرها كان جميلاً جدّاً وكانت تكلّمني كما لو كان الذنب ذنبي، لم أصنعها بشكل يسمح لها بأن تكون سعيدة. لوم قديم. شعرت بها فارغة، نعم فارغة ومملّة تقع في مساحة بعيدة جدّاً عن تلك المساحة الأخرى عند البحر في المساء فأضعتُها. وفيما كانت تواصل التذمر أغلقتُ عينيَّ على الألم الذي أشعر به في ظهري ورأيت روزاريا، سمينة ومتعبة تتبعني في حرج الصنوبر مع عصابة الفتيان من أقاربها، تختبئ وقد ألقتْ بطنها الكبيرة العارية كقبة على فخذيها العريضتين وهي تشير إلي كأنني هدفٌ. عندما أغلقت الخط كان قد تملكني الندم لأني اتصلتُ، كنت أشعر بأنني أكثر اضطراباً من ذي قبل وكان قلبي يقرع بقوة.

كان يجب عليَّ أن آكل، لكنّ المطاعم كانت مكتظة، أكره أن أكون امرأة وحيدة في مطعم يوم سبت. قررت أن أتناول شيئاً في المقهى أسفل المنزل. توجهت إليه بخطى متثاقلة، نظرت من خلال زجاج الكونتوار: ذباب يطير. طلبت قطعتين من كروكيت البطاطس، وآرنتشينو[1]، وبيرة. وفيما كنت أتناول وجبتي بدون شهية سمعت خلفي كلاماً يتبادله مسنون بلهجة محلية جدّاً، كانوا يلعبون الورق، ويتضاحكون، كنت قد لمحتهم للتوّ بطرف عيني وأنا أدخل. استدرت، إلى طاولة اللاعبين جلس جوفاني الساعي، الذي كان قد استقبلني عند وصولي ثم لم أره بعد ذلك.

طرح الأوراق على الطاولة ووافاني إلى الكونتوار. تحدث في العموميات، سألني عن أحوالي، وما إذا تأقلمتُ، وإن كنت مرتاحة في الشقة، مجردُ حديث. غير أنّه كان يحدّثني طوال الوقت وهو يبتسم لي بتواطؤ، حتى ولو لم يكن هناك من داعٍ للابتسام بتلك الطريقة، فكنّا قد التقينا مرة واحدة فقط لدقائق معدودة، وكان يصعب فهمُ مبعث التواطؤ بيننا. كان يحافظ على انخفاض صوته، وعند كل كلمة كان يقترب مني بضعة صنتمترات، وقد لمس مرّتين ذراعي بأطراف أصابعه، فيما وضع مرة يده المغطاة بالبقع الداكنة على كتفي. وعندما سألني ما إذا كنت بحاجة إلى أي خدمة يسديها لي كان يهمس في أذني تقريباً. لاحظت أنّ رفاقه في اللعب كانوا يحدقون إلينا صامتين فشعرت بالحرج. كانوا في مثل سنّه، جميعهم في السبعين من العمر،

---

(1) كبيبة أرز. (المترجمة)

بدوا حضوراً في مسرح يشاهدون من غير تصديق مشهداً مذهلاً.

عندما أنهيت عشائي أومأ جوفاني للنادل ما معناه أنّ الحساب عليّ، لم يتح لي بأي شكل من الأشكال أن أدفع. شكرته وخرجتُ مسرعة وفقط عندما اجتزتُ العتبة وسمعت ضحكات اللاعبين الخشنة فهمت أنّ ذاك الرجل تظاهر بعلاقة حميمة ما تربطه بي أنا الغريبة وحاول إثبات ذلك مؤدياً أمام الحاضرين دور الذكر السيد.

كان يُفتَرض بي أن أغضب غير أنّ حالي تحسّن فجأة. فكرت في العودة إلى البار، والجلوس إلى جانب جوفاني، وتشجيعه صراحة في لعبة الورق، تماماً كما كانت ستفعل شابة شقراء في أحد أفلام العصابات. كان كهلاً نحيلاً لم يتساقط شعره، وحده جلده تبقّع وغارت فيه التجاعيد، وقد اصفرّت قزحته وغطى غشاء خفيف بؤبؤه. لقد مثّل، وكنت سأمثّل بدوري. كنت سأهمس في أذنه، وأحفّ ثديي بذراعه، وأضع ذقني على كتفه وأنا أتلصص على أوراقه. كان سيمتنّ لي حتى آخر أيامه.

غير أنّني عدت إلى البيت وانتظرت على الشرفة أن يتملكني النعاس، فيما كانت المنارة تجلدني.

9

لم يغمض لي جفن طوال الليل. كان ظهري ينبض وقد التهب، وكانت تصلني من أرجاء البلدة كلّها حتى الفجر موسيقى صاخبة،

وجلبة سيارات، وصرخات النداء أو تبادل التحية.

بقيت مستلقية، ومضطربة، وقد تعاظم لدي إحساس بالتفتت: بيانكا ومارتا، الصعوبات التي أواجهها في عملي، نينا، وإيلينا، وروزاريا، والداي، جانّي زوجي السابق. فجراً حل صمت مفاجئ ونمت لبضع ساعات.

استيقظت عند الحادية عشرة، جمعت بسرعة أغراضي واستقللت السيارة. إلاّ أنّ اليوم كان يوم أحد قائظ، كان ازدحام السير خانقاً، صعُب علي أن أركن السيارة، وآل بي الأمر وسط ضوضاء أسوأ من تلك التي شهدتها اليوم السابق، دفقٌ من الشبان، والمسنين، والأطفال المثقلين بالمتاع وقد ازدحم بهم حرج الصنوبر وهم يتدافعون ليحتلوا في أسرع وقت جزءاً من الرمل والبحر.

جينو، وقد شغله دفق رواد المسبح المستمر، قلّما اعتنى بي، أومأ إليّ فقط محيياً. بعد أن ارتديتُ المايوه سارعت إلى الاستلقاء في الظل على ظهري لأخبئ الكدمة، ووضعت نظارتين داكنتين؛ فقد كنت أشعر بألم في رأسي.

كان الشاطئ مكتظاً. بحثت نظراتي عن روزاريا فلم أعثر عليها، بدا وكأنّ العشيرة قد تفرقت مرتبكة بين الحشود. بعد أن ركّزتُ النظر تمكّنتُ من رؤية نينا وزوجها وهما يتنزهان على طول الشاطئ.

كانت ترتدي مايوهاً كحلي اللون من قطعتين، بدت لي من جديد جميلة جدّاً، كانت تتحرك بالأناقة الطبيعية ذاتها، حتى وإن كانت تتلفظ بانفعال في تلك اللحظات بكلام ما، أمّا هو وقد كان عاري

الصدر فقد كان أكثر سمنة من أخته روزاريا، أبيض لم يحمرّ جلده حتى من الشمس، حركاته مدروسة وقد بانت على صدره المليء بالشعر سلسلة من ذهب تدلّى منها صليب، بالإضافة إلى ملمح بدا لي مقززاً وهو كرش كبير قسمته إلى جزءين منتفخين ندبة عميقة كانت تصل حافة المايو بقوس الأضلع.

أدهشني غياب إيلينا، كانت تلك المرة الأولى التي لا أرى فيها الأم والابنة معاً. لكنّي سرعان ما أدركت أنّ الطفلة كانت على بعد خطوات مني وقد جلست على الرمل تحت الشمس معتمرة قبعة أمها الجديدة وهي تلعب بالدمية. لاحظت أنّ احمرار عينيها قد ازداد، وكانت تلحس بين الحين والآخر المخاط الذي يسيل من أنفها بطرف لسانها.

من كانت تشبه؟ الآن وقد رأيت أباها كذلك بدا لي أنّي قادرة على أن أتعرف لديها على ملامح كلّ من والديها. ننظر إلى طفل وإذا بنا نبدأ فوراً لعبة التشبيه، نسارع في حبسه داخل محيط والديه المعروف. في الواقع ليس سوى مادة حيّة، جسد آخر انبثق من باب المصادفة عن حلقات طويلة من الأجسام. هندسة -الطبيعة هندسة، والثقافة كذلك، والعلم دورة متعاقبة، وحدها الفوضى ليست مهندسة- وضرورة التكاثر الغاضبة في آن. أردت إنجاب بيانكا، وإن رغبة مبهمة بإنجاب الأبناء تتملكنا تعزّزها المعتقدات السائدة. حملتُ بها في الحال، كنت في الثالثة والعشرين من العمر، وكنّا، أنا وأبوها، في خضم معركة لنواصل العمل أنا وهو في الجامعة. أفلح هو في

البقاء، فيما فشلت أنا. جسد المرأة يصنع آلاف الأشياء معاً، يتعب، ويركض، ويدرس، ويحلم، ويخترع، ويُنهك. يثقل الثديان وتنتفخ شفرتا المهبل، والجسد ينبض بحياة مستديرة هي للكِ، هي حياتك غير أنّها تدفع باتجاه آخر، تلهو عنكِ فيما تسكن بطنك، فرحة وثقيلة، تتمتعين بها كما لو كانت غريزة وحشية، لكنها منفّرة، كما لو زرعنا حشرة سامة في شريان.

حياتك تريد أن تصبح حياة شخص آخر، بيانكا قُذفت إلى الخارج، نعم قُذفت ولكن كان الجميع حولنا يعتقدون، وكنا مثلهم نعتقد، أنّه لا يمكن لها أن تكبُر وحيدة؛ فقد كان سيكون ذلك محزناً جدّاً، كان لا بد من أخ أو أخت ترافقها. لذا وبعد ولادتها في الحال برمجتُ طائعة، نعم برمجتُ، نمو مارتا في بطني.

وهكذا في عمر الخامسة والعشرين انتهى اللعب بالنسبة إلي. كان والدهما يجوب العالم لحضور مناسبة تلو أخرى. لم يكن يتسنى له الوقت حتى ليرى عن كثب ما نُسخ من جسده، ما كانت عليه نتيجة التناسل. كان لا ينظر إلى الطفلتين تقريباً أو يكاد، إلاّ أنّه كان يقول بكل حنان: إنّهما نسخة منك. فجانّي رجل لطيف، وابنتانا تحبانه. بالكاد اعتنى بهما، وبعدما دعت الحاجة إلى بذل كلّ ما في وسعه والآن أيضاً يفعل كل ما يقدر عليه. الأطفال يحبونه عادة. لو كان هنا لما جلس مثلي على الكرسي، لا بل كان سيذهب ليلعب مع إيلينا، كان سيشعر أنّ من واجبه فعل ذلك.

أمّا أنا فلا. كنت أنظر إلى الطفلة، وإذ أراها كذلك وحيدة، وكأن

جميع أسلافها قد ضُغطوا في جسمها، كان يعتريني إحساس يشبه النفور، على الرغم من أنّني لم أكن أعلم ما ينفّرني. كانت الطفلة تلعب بالدمية. كانت تحدّثها لا بوصفها لعبة رثة رأسها نصفه أشقر ونصفه أصلع، من يدري ما هي الصورة التي كانت تنسبها إليها. كانت تدعوها ناني، نانوتشا، نانيكيا، نينيلاّ. كانت تقبّلها بقوة على وجهها حتى بدا وكأنّها تنفخ البلاستك نافثة بفمها محبتها الغازية، والمتأرجحة، نافخة كل ما أوتيت من مودّة. كانت تقبّلها على صدرها العاري، وعلى ظهرها، وعلى بطنها، تقبّلها في كل موضع فاتحة فمها كما لو أنها تريد التهامها.

أشحت ببصري، إذ يجب أن نقي ألعابَ الأطفال من الأنظار. إلاّ أنّني عاودتُ النظر إليها. كانت ناني دمية قبيحة وقديمة كانت تحمل في وجهها وجسمها آثار قلم حبر. إلاّ أنّها كانت تنضح في تلك اللحظات بقوة حيّة. كانت هي من يقبّل إيلينا الآن بحماسة متعاظمة. كانت تسدد لها قبلات واثقة على خدّيها، كانت تضع شفتي البلاستك على شفتيها هي، وكانت تقبّل صدرها الهزيل، وبطنها المنتفخة قليلاً، وكانت تضغط برأسها على ثوب السباحة الأخضر. تنبّهت الطفلة إلى أنّني كنت أنظر إليها. ابتسمت لي بنظرة صريحة وضمّت بقوة، كما لو كانت تتحداني، رأس الدمية بين ساقيها بيديها الاثنتين. هكذا يلعب الأطفال، وهو أمر معروف، ومن ثم ينسون. وقفتُ. كانت الشمس حارقة، وقد تعرّقتُ كثيراً. لا نسمةَ على الإطلاق، وكان ضباب رمادي يتصاعد في الأفق. ذهبت أسبح.

من الماء، رأيتُ، وأنا أطفو بكسل بين جموع يوم الأحد، نينا وزوجها يواصلان النقاش. كانت تحتج على أمر ما فيما كان يستمع إليها. ومن ثم بدا وكأنّ الرجل سئم الكلام؛ فتلفظ بكلام حاسم لكن بدون انفعال، وبهدوء. تبادر إلى ذهني لا شكّ في كونه يحبها كثيراً. تركها على الشاطئ وذهب ليتحدث مع أولئك الذين وصلوا في اليوم السابق على متن الزورق. كان من الواضح أنّهم كانوا في خلاف. هكذا هي الحال دائماً وهو ما علّمتني إياه التجربة: أولاً الاحتفال، والأصدقاء والأقارب والجميع متحابون، ومن ثم تأتي الخلافات نتيجة الكثرة والأحقاد القديمة التي تنفجر. بعد قليل وبدون ترتيب غادر الرجال والنساء ذوات الثراء الفاحش، والأطفال البدينون، مظلات العشيرة، وضعوا أمتعتهم على متن الزورق، وقد حاول زوج نينا أن يساعدهم بنفسه ربّما ليعجّل في رحيلهم. مضوا وسط القبل والعناق كحالهم عندما وصلوا، إلاّ أنّ أحداً منهم لم يذهب لإلقاء التحية على نينا. وهي بدورها ابتعدت عن الشاطئ مخفضة رأسها، كما لو أنّها لم تكن لتطيق أن تراهم ولو لدقيقة إضافية.

سبحتُ طويلاً لأخلّف ورائي جموعَ يوم الأحد. قوّى ماء البحر ظهري، وتوقف الألم أو بدا لي أنّه توقف. بقيت طويلاً في الماء إلى أن رأيتُ أنّ أطراف أصابعي قد انتفخت ورحت أرتجف من البرد. عندما كانت أمي ترى أنّ الأمر آل بي إلى تلك الحالة كانت تسحبني خارج الماء صارخة. كانت ترى أسناني تصطك ما كان يثير غضبها

أكثر، كانت تهزّني وتغطّيني بقوة، وبعنف حتى إنّي كنت أجهل ما إن كان ذلك قلقاً على صحتي أم أنه غضب دفين ووحشية تسلخ جلدي.

وضعت المنشفة على الرمل اللاهب مباشرة، واستلقيتُ عليها. كم أحب الرمل الحارق بعد أن يكون البحر قد جمّد جلدي. نظرتُ إلى المكان الذي كانت فيه إيلينا. لم تتبقَ سوى الدمية لكنها في وضعية صعبة، الذراعان مفتوحتان، والساقان منفرجتان وهي ملقية على ظهرها ورأسها مدفون جزئياً في الرمل. كان الأنف ظاهراً بالإضافة إلى عين واحدة ونصف رأسها. الحرارة الفاترة جعلتني أغفو، وكذلك سهري الليلة الماضية.

10

نمت لدقيقة، لعشر دقائق. عندما استيقظت نهضت طائشة. رأيت السماء وقد أصبحت بيضاء، مادة ناصعة حارة. كان الهواء ساكناً وقد ازداد الناس عدداً، سمعت ضجيج الموسيقى والبشر. في ازدحام يوم الأحد ذاك، وكما لو كنت أستجيب لنداء سري، وقع نظري على نينا.

كان شيء ما قد حدث لها. كانت تتنقل ببطء بين المظلات، بارتباك وهي تبتلع ريقها. اِلتفتتْ برأسها إلى جانب، ومن ثم إلى الجانب الآخر فجأة كطائر مستنفر. تلفظت بكلمات ما لنفسها لم أكن

قادرة على التقاطها من موقعي، ومن ثم انطلقت راكضة نحو زوجها الذي كان مستلقياً على كرسي تحت المظلة.

هبّ الرجل ونظر حوله. جذبه الرجل العجوز الشرير من ذراعه، فسحبها، واقتربت منه روزاريا. راح جميع الأقارب كباراً وصغاراً ينظرون حولهم كما لو كانوا جسماً واحداً، ومن ثم تحرّكوا وتفرّقوا.

انطلقت النداءات: إيلينا، لينوتشا، لينا. توجهت روزاريا بخطى قصيرة إنّما سريعة نحو البحر كما لو كانت تشعر بحاجة ملحة إلى أن تسبح. نظرت إلى نينا، كانت تبدر عنها حركات خرقاء، كانت تلمس جبينها، وتذهب يمنة ومن ثم تعود فجأة أدراجها يسرة. كانت كما لو أنّ شيئاً داخل أحشائها يسحب الحياة من وجهها. ضرب جلدها إلى الأصفر، كانت عيناها المتحركتان بلا توقف مجنونتين من القلق. لم تعثر على الطفلة فقد أضاعتها.

فكرت في سرّي بأنها ستعاود الظهور، كنت معتادة على حوادث الاختفاء. كانت أمي تقول إنّي كنت أضيع طوال الوقت في صغري. كانت لحظة واحدة كفيلة بأن تجعلني أختفي؛ فكان عليهم أن يهرعوا نحو المسبح ليطلبوا أن تُذاع أوصافي عبر مكبر الصوت، واسمي، فيما كانت هي تنتظرني إلى جانب الصندوق. لم أكن أذكر أي شيء عن اختفائي المتكرر، فقد استبقيت أحداثاً أخرى في ذاكرتي. كنت أخشى ضياع أمّي، وكنت في حالة قلق دائمة من ألاّ أعثر عليها. إلاّ أنّني أذكر بوضوح تلك المرة عندما أضعت بيانكا. كنت أركض على الشاطئ كما تفعل نينا الآن غير أنّني كنت أحمل مارتا بين ذراعيّ

وهي تتخبط. لم أكن أعرف ماذا أفعل، كنت وحدي مع الطفلتين، وزوجي في الخارج، لم أكن أعرف أحداً. الأبناء مبعثٌ للقلق. استبقيت في ذهني أنّي كنت أبحث بنظراتي في الاتجاهات جميعها باستثناء البحر، لم أكن أجرؤ على النظر إلى الماء.

لاحظت أنّ نينا تفعل الأمر نفسه. كانت تبحث في كل مكان لكنّها كانت تدير بيأس ظهرها للبحر، فشعرت فجأة بالانفعال وبرغبة في البكاء. منذ تلك اللحظة لم أعد قادرة على أن أقف مكتوفة اليدين، رأيتُ من غير المقبول ألاّ يتنبه الناس على الشاطئ حتى إلى بحث أهالي نابولي المحموم. ثمة خطوط يصعب على أي رسّام نقلها، حركة مضيئة تليها حركة سوداء. هم الذين كانوا يبدون مستقلين جدّاً، ومتغطرسين جدّاً بدوا لي الآن ضعفاء منكسرين. أُعجبت بروزاريا الوحيدة التي كانت تحدّق في البحر. كانت تتحرك ببطنها الكبيرة بخطى سريعة، لكن قصيرة، على طول الشاطئ. نهضت عند ذلك وتوجهت إلى نينا لمست ذراعها. استدارت بغتة كما لو كانت أفعى، وصرخت قائلة وجدتها... كلّمتني رافعة الكلفة كما لو كنّا نعرف بعضنا البعض على الرغم من أنّ إحدانا لم تكلم الأخرى يوماً.

«إنّها تعتمر قبعتك» قلت لها، «سنعثر عليها سنراها بسهولة».

نظرت إلي حائرة وأومأت بالإيجاب وركضت بالاتجاه الذي مضى فيه زوجها. كانت تركض كما لو كانت رياضية شابة تتنافس مع حظها.

مضيتُ في الاتجاه المعاكس على طول صفّ المظلات الأول بخطى

بطيئة. شعرت كما لو كنت إيلينا أو بيانكا عندما ضاعت، ولكن ربما لم أكن سوى أنا نفسي في صغري، وأنا أخرج من النسيان. الطفلة التي تضيع بين الجموع على الشاطئ ترى كل شيء في مكانه، وعلى الرغم من ذلك لا تتعرف على شيء البتة. تفتقد للبوصلة، شيء ما كان يسمح لها في ما مضى بالتعرف على السابحين والمظلات. تشعر الطفلة أنّها ما تزال في مكانها بالضبط ومع ذلك لا تعرف أين هي. تنظر الطفلة حولها بعينين جزعتين فترى البحر هو البحر، والشاطئ هو الشاطئ، والناس هم الناس، وبائع جوز الهند الطازج هو بائع جوز الهند الطازج. غير أنّ كل شيء وكل شخص غريب فتبكي. وهي لا تقول للمرشد الذي لا تعرفه، والذي يسألها ماذا ألمّ بها، ولِمَ تبكي. لا تقول له إنها وأنّها ضائعة، وإنها لم تعد تجد أمها. كانت بيانكا تبكي عندما عثروا عليها، وعندما حملوها إلي. كنت أنا كذلك أبكي بدموع الفرح، دموع الارتياح غير أنّي كنت أصرخ غاضبة مثل أمي بسبب ثقل المسؤولية الساحق، بسبب الرابط الخانق، وكنت أشدّ ابنتي الكبرى بذراعي الطليقة، وأصيح: سيكلفك ذلك غالياً بيانكا سترين في البيت... حذار أن تبتعدي بعد اليوم.

سرت قليلاً باحثة بين أطفال كانوا بمفردهم، وآخرين كانوا ضمن مجموعات، وأطفال كان يحملهم الكبار. كنت أشعر بداخلي يغلي، كنت أشعر بشيء من الغثيان، إلاّ أني كنت قادرة على الانتباه. أبصرت أخيراً قبعة القش، فشعرت بقلبي يغور. من بعيد بدت مطروحة على الرمل فيما كانت إيلينا أسفلها. كانت تجلس على بعد

متر من الماء، وكان الناس يمرون قربها من غير أن يتنبّهوا إليها، كانت تبكي دموعاً صامتة. لم تقل لي إنّها أضاعت أمّها، بل دميتها. كانت في حالة يأس.

حملتُها بين ذراعيّ، عدت بسرعة نحو المسبح. التقيت بروزاريا التي كادت تنتزعها مني بحماسة محمومة، صرخت فرحة، وراحت تومئ لزوجة أخيها. رأتنا نينا، رأت ابنتها فهرعت. هرع كذلك زوجها، هرع الجميع من الكثبان، ومن المسبح ومن الشاطئ. كان كل فرد من أفراد العائلة يريد تقبيلها، ومعانقتها، وتذوق الراحة بعد زوال الخطر.

أما أنا فقد انسحبتُ، عدت إلى الجلوس تحت مظلتي وأخذت أجمع أغراضي على الرغم من أنّ الساعة لم تبلغ حتى الثانية من بعد الظهر. لم أكن أطيق سماع بكاء إيلينا المتواصل. رأيت المجموعة وهي تحتفي بها، انتزعتها النساء من أمها وتناقلنها في ما بينهن، وهن يحاولن التهدئة من روعها بدون طائل، فقد كانت مواساة الطفلة مستحيلة.

انضمت إلي نينا. تلتها في الحال روزاريا وقد بدت فخورة بأنّها كانت الأولى التي أقامت علاقة معي، وبأنني كنت حاسمة جدّاً.

«أردت أن أشكرك» قالت نينا.

«شعرت وكأني أموت».

«ابنتي ضاعت بدورها في يوم أحد من شهر أغسطس منذ عشرين سنة تقريباً، ولكنّني لم أر شيئاً؟ فالقلق يعمي. في مثل هذه الحالات يصير الغرباء أجدى نفعاً».

«لحسن الحظ أنّك كنت موجودة» قالت روزاريا، «فشرور كثيرة تحصل». ومن ثم وقع نظرها بطبيعة الحال على ظهري فقد شهقت مرعوبة: «يا إلهي، ما جرى لكِ هنا؟ من فعل ذلك؟»

«كوز صنوبر في الحرج».

«يا للهول ألم تضعي شيئاً؟»

أرادت أن تذهب لتأتيني بمرهم قالت إنّه يجترح المعجزات. بقينا أنا ونينا وحدنا، بلغتنا صيحات الطفلة المتكررة.

«لا شيء يهدّئ من روعها» قلت لها.

ابتسمت نينا.

«إنّه ليوم صعب: عثرنا عليها لكنّ اللعبة ضاعت».

«ستعثرون عليها».

«طبعاً فإن لم نعثر عليها ما عسانا نفعل؟ ستمرض»

شعرتُ ببرد مفاجئ سرى في ظهري، كانت روزاريا قد وصلت بهدوء خلفي وقد بدأت بدهن المرهم على ظهري.

«لا بأس؟»

«لا بأس شكراً»

واصلت عملها برقة. عندما فرغت من ذلك ارتديت الفستان فوق المايوه وتناولت حقيبتي.

«إلى الغد» كنت أستعجل الذهاب.

«سترين أنّك ستبرئين ابتداء من هذا المساء».

نظرت مرة أخيرة إلى إيلينا التي كانت تتخبط وتلوي ذراع والدها

وهي تنادي تارة والدتها وطوراً لعبتها.

«فلنذهب» قالت روزاريا لزوجة أخيها، «فلنعثر على لعبتها لم أعد أطيق صراخها». أومأت إلي نينا بالتحية، وهرعت باتجاه ابنتها. فيما بدأت روزاريا فوراً مساءلة الأطفال وأهاليهم، وراحت تبحث بدون إذن بين الألعاب التي تراكمت أسفل المظلات.

صعدتُ الكثبان، وولجت الحرج، ولكن بدا لي وكأن صراخ الطفلة كان يبلغني. كنت أشعر بالاضطراب، وضعت يدي على صدري لأهدئ ضربات قلبي المتسارعة. أنا من أخذ الدمية، كانت في حقيبتي.

11

فيما كنت أقود السيارة باتجاه البيت هدأت. اكتشفت أنّي كنت عاجزة عن تذكر اللحظة التي أقدمت فيها على فعل بدا لي الآن مضحكاً، كان مضحكاً لأنه لا معنى له. شعرت كمن يستدرك فجأة بشيء من الخوف، وشيء من الاستمتاع ما جرى له.

لا شك في أنّ موجة من الشفقة ساورتني، كتلك النوبات التي كانت تنتابني في طفولتي من غير سبب ظاهر، إزاء الأشخاص، والحيوانات، والنباتات، والأشياء. راق لي التفسير، بدا لي أنّه يحيلني إلى شيء أصيل ونبيل. انتابني اندفاع تلقائي لمدّ يد العون. نينا، ناني، نينيلا، ما أدراني ما اسمها. رأيتها مرمية على الرمل، مبعثرة وقد دُفن

نصف وجهها كما لو كانت ستختنق فسحبتها. رد فعل طفولي، لا أكثر، لا يكبر المرء تماماً أبداً. قرّرتُ أن أعيدها في اليوم التالي. سأقصد الشاطئ باكراً جدّاً، وسأدفنها تحت الرمل في الموقع الذي تركتها فيه إيلينا لتجدها بنفسها. سألعب قليلاً مع الطفلة ومن ثم سأسألها عمَّ هناك، وسأقول لها انظري فلنحفر. شعرت بما يشبه السعادة.

أفرغت في البيت الحقيبة من المايوه، والمناشف، والمساحيق إلاّ أنّي تركت الدمية في الأسفل لئلاّ أنساها في الغد. استحممت وغسلت أثواب السباحة ونشرتها لتجف. أعددت طبق سلطة تناولته على الشرفة وأنا أنظر إلى البحر، وإلى الرغوة التي تشكلت حول الألسنة البركانية، وإلى الغيوم السوداء المحتشدة التي كانت تنسحب من الأفق. ومن ثم شعرت على حين غرة أنّي اقترفت عملاً سيئاً... صحيح أن عن غير قصد، لكنه، في النهاية عملٌ سيئ. أتيت حركة كما لو كنت نائمة، عندما يتقلب المرء في فراشه فيوقع المصباح الذي وُضع على المنضدة. فكرتُ أن لا علاقة للشفقة بذلك، لم يكن ذاك الإحساس ينمّ عن كرم. شعرت كما لو كنت قطرة ماء تنزلق على صفحة ورقة بعد المطر وقد هزّتها حركة يتعذر تفاديها. أسعى إلى إيجاد المسوِّغات الآن، ولكن لا مسوغ. أشعر بالاضطراب؟ فالأشهر الخفيفة انقضت ربما، وأخشى أن تعود الأفكار السريعة جدّاً، وأن تسحبني الصور في دوامتها. كان البحر قد أمسى شريطاً ليلكياً، وهب الهواء. كما أنّ الطقس متقلب، تراجعت الحرارة فجأة. لا شك في أنّ إيلينا ما تزال تبكي على الشاطئ، ونينا يائسة، وروزاريا قد

نبشت الشاطئ شبراً شبراً، والعشيرة في حرب مع جميع رواد المسبح. طار منديل ورقي، نزعتُ الأطباق عن الطاولة، وللمرة الأولى منذ أشهر طويلة شعرت بالوحدة. رأيت بعيداً عند البحر ستاراً من المطر الداكن ينزل من السحاب.

اشتدّت الريح في غضون دقائق معدودة، مُصدِرة أنيناً طويلاً كان يتمسّح بالمبنى وينفث في البيت غباراً، وأوراقاً جافة، وحشرات ميتة. أقفلت باب الشرفة، حملت حقيبتي، وجلست على الكنبة الصغيرة في مواجهة الباب الزجاجي. لم أكن قادرة على إيقاف حتى النوايا. أخرجت الدمية وقلّبتها حيرى بين يديّ. كانت عارية، أين يا ترى تركت إيلينا ثيابها؟ كان وزنها أكثر من المتوقع لا شك في أنّها كانت ملأى بالماء. كان شعرها الأشقر القليل يغطي رأسها على شكل خصل صغيرة ومتباعدة. كان خداها منتفخين جدّاً، وعيناها زرقاوين غبيتين، وشفتاها صغيرتين يتخلل وسطهما ثقب داكن. وكان جذعها طويلاً، وبطنها نافرة وبين الساقين السمينتين والقصيرتين تراءى، أو كاد، خطّ عمودي متصل بين الردفين الواسعين.

وددتُ أن أُلبسها ثياباً. خطر ببالي أن أشتري لها ثياباً على سبيل المفاجأة لإيلينا، كما لو كان ذلك تعويضاً. ما الذي تعنيه دمية لطفلة؟ كانت لدي دمية شعرها جميل ينسدل في حلقات وكنت أرعاها كثيراً، لم أُضعها يوماً. كان اسمها مينا، مامينا. ماموتشا، تذكرت كلمة كانت تُستخدَم فيما مضى إشارة إلى الدمية ولم تعد تستعمل

اليوم. اللعب مع الماموتشا. ونادراً ما كانت أمي تقبل أن تشاركني في الألعاب التي كنت أحاول القيام بها مستخدمة جسمها. سرعان ما كانت تتملكها العصبية، لم يكن يعجبها أن تتظاهر بأنها دمية. كانت تضحك، وترفض، وتغضب. كان يزعجها أن أسرّح شعرها، وأن أضع لها الشرائط، وأن أغسل وجهها وأذنيها، وأن أخلع ثيابها وأعيد إلباسها إياها.

أمّا أنا فلا. عندما كبرت حاولت أن أتذكّر كم ضايقني ألاّ أستطيع أن أتصرف في شعر أمي، ووجهها، وجسمها. لذا تحولت بصبر إلى دمية بيانكا في سنوات حياتها الأولى. كانت تجرّني تحت طاولة المطبخ، كان ذاك كوخنا، كانت تجعلني أستلقي. أذكر أنني كنت منهكة، لم تكن مارتا تغمض جفنا ليلاً، كانت تنام قليلاً أثناء النهار فقط، فيما كانت بيانكا قربي دائماً وطلباتها كانت كثيرة، لم تكن تريد الذهاب إلى حضانة الأطفال، وفي المرات القليلة التي كنت فيها أنجح في إرسالها إليها كانت تصاب بالمرض، الأمر الذي كان يزيد الأمور تعقيداً. غير أنّي كنت أحاول الحفاظ على رباطة جأشي، فكنت أريد أن أكون أُمّا صالحة. كنت أستلقي على الأرض، وأدعها تعنى بي كما لو كنت مريضة. كانت بيانكا تعطيني الدواء، وتغسل أسناني، وتسرح شعري. أحياناً كنت أغفو لكنّها كانت صغيرة السن ولم تكن تعرف كيف تستخدم المشط لذا عندما كانت تشدّ شعري كنت أنتفض مستيقظة. كنت أشعر بعيني وهما تغرورقان ألماً.

كنتُ في حالة يُرثى لها في تلك الأعوام. لم أعد قادرة على أن

أدرس، وكنت ألعب بلا فرح وأشعر بجسدي بلا روح، بدون رغبات. عندما كانت مارتا تشرع في الصراخ في الغرفة المجاورة كنت أشعر وكأنني أتحرر تقريباً. كنت أنهض موقفة باستياء ألعاب بيانكا، لكنني لم أكن أشعر بالذنب، لم أكن أنا من يرفض الإذعان لابنتي، بل كانت ابنتي الثانية هي من تقتلعني من ابنتي البكر. يجب أن أذهب لأرى مارتا، سأعود في الحال، انتظريني! أمّا هي فكانت تنفجر بالبكاء.

في لحظة انتابني شعور عارم بأنني في غير محلي قررت أن أعطي مينا لبيانكا، بدت لي بادرة لطيفة، محاولة لإسكات غيرتها إزاء شقيقتها الصغرى. لذا جئت بالدمية القديمة من صندوق من الكرتون وُضع فوق الخزانة وقلت لبيانكا: انظري! اسمها مينا كانت هذه دمية الماما عندما كانت صغيرة، سأهديكها. ظننت أنّها كانت ستحبها، بدا لي أنّها من المؤكد ستكرّس لها اهتمامها كما كانت تفعل في الألعاب معي. إلاّ أنّها طرحتها جانباً فوراً، لم تكن مينا تروق لها. كانت تفضل عليها دمية قبيحة من القماش شعرها عبارة عن خيوط صوف صفراء، كان قد جلبها لها أبوها هدية عند عودته من مكان ما. ساءني ذلك جدّاً.

في أحد الأيام كانت بيانكا تلعب في الشرفة فقد كانت تحب المكان كثيراً. كنت أتركها هناك ما إن يبدأ الربيع، لم يكن لدي الوقت لأصحبها إلى الخارج، ولكني كنت أريد لها أن تتعرض للهواء والشمس على الرغم من أنّ ضجيج الازدحام ورائحة غاز وعوادم نفّاذة كانت تبلغنا من الشارع. لم أكن قادرة منذ أشهر طويلة على

أن أطالع كتاباً، فقد كنت منهكة وحانقة، لم يكن المال يكفينا أبداً، وكنت أنام قليلاً جدّاً. وجدت بيانكا وهي جالسة على مينا كما لو كانت كرسياً فيما كانت تلعب بدميتها. طلبت إليها أن تنهض على الفور، كان عليها ألاّ تفسد متاعاً عزيزاً يعود إلى طفولتي. لقد كانت شريرة جدّاً وجحوداً. استخدمتُ صفة «جحود» على وجه التحديد، ورحت أصرخ، يبدو لي أنّني كنت أصرخ قائلة إنّي أخطأت عندما أهديتها إياها، كانت تلك دميتي وكنت أنوي استرجاعها.

كم هي الأشياء التي نفعلها بالأطفال، والتي نقولها لهم خلف أبواب المنازل الموصدة! كانت بيانكا في الأصل باردة الطباع، طالما كانت كذلك، كانت تبتلع القلق والمشاعر. بقيت جالسة فوق مينا، وقالت فقط وهي تتوقف ما بين الكلمات كما تفعل حتى هذا اليوم عندما تعلن عن رغباتها كما لو كانت رغباتها الأخيرة: لا إنّها لي. عند ذلك دفعتها دفعة قاسية، كانت طفلة في الثالثة من العمر إلاّ أنّها بدت لي أكبر سناً في تلك اللحظة، وأقوى مني. انتزعت منها مينا، فشاب نظرتَها الخوف أخيراً. اكتشفتُ أنّها نزعت عنها كل ثيابها وكذلك الحذاءين والجوربين وقد لطختها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بأقلام التلوين. إساءة يمكن أن تعالج إلاّ أنّها بدت لي إساءة غير قابلة للعلاج مثلي تماماً. قذفتُ بالدمية خلف حاجز الشرفة. رأيتها تطير نحو الإسفلت، فانتابني فرح وحشي. بدت لي، وهي تسقط، كائناً شنيعاً. بقيتُ مستندة إلى الحاجز لوقت لم أكن أعرف أن أحدده مراقبةً السيارة التي كان تسير فوقها ممزقة إياها. ومن ثم تنبهتُ إلى

أنّ بيانكا أيضاً كانت تنظر إليها راكعة وقد ألقت جبينها على قضبان الشرفة. حملتُها عند ذلك بين ذراعيّ فتركتني أفعل بإذعان. قبّلتها طويلاً، وضممتها إليّ كما لو كنت أريد أن أعيدها إلى جسدي. ماما آلمتني، ماما إنّك تؤلمينني. تركت دمية إيلينا على الكنبة مقلوبة على ظهرها وبطنها إلى الأعلى.

سرعان ما وصلت العاصفة الرعدية إلى البرّ شديدة عنيفة يرافقها برق شديد يعمي الأبصار، ورعد أشبه بانفجارات سيارات مفخخة بالتي إن تي. هرعت أقفل النوافذ في غرفة النوم قبل أن تطوف، وأضأت المصباح على المنضدة. استلقيت على السرير وأسندت الوسائد إلى سِناده، ورحت أعمل بجد مالئة الأوراق بالملاحظات.

طالما كانت القراءة والكتابة طريقتي في استعادة الهدوء.

12

انتزعني من العمل نور مُحْمَرّ وقد توقف المطر. أمضيت بعض الوقت وأنا أتزيّن، وأرتدي ثيابي بعناية. أردت لمنظري أن يكون منظر امرأة محترمة وأنيقة تماماً. خرجت.

كان متنزهو يوم الأحد أقل عدداً وضجيجاً منهم يوم السبت، وقد جعل دفق إجازة نهاية الأسبوع الكثيف يتراجع. تنزهتُ قليلاً على كورنيش البحر، ومن ثم توجهت إلى مطعم يقع قرب السوق المسقوفة. التقيتُ بجينو، كان يرتدي الملابس التي يرتديها دائماً على

الشاطئ، ربما كان عائداً من هناك. ألقى عليّ تحية لبقة، أراد تجاوزي ولكنّني توقفت فاضطُرّ للتوقف بدوره.

كنت أشعر بحاجة إلى الاستماع إلى نبرة صوتي، لأن أخضعها بفعل صوت شخص آخر. سألته عن العاصفة الرعدية وعمَّ جرى على الشاطئ. قال إنّ ريحاً شديدة عتت، وإنّ عواصف مائية ورياحاً هبت وقد اقتلعت الكثير من المظلات. وهرع الناس للاختباء في مبنى المسبح، وفي المقهى، إلاّ أنّ كثيرين احتشدوا هناك فاضطر البعض للإذعان بالخروج وقد أقفر الشاطئ.

«لحسن الحظ ذهبتِ باكراً»

«أنا أحب العواصف الرعدية»

«كانت كتبك ودفاترك لتتلف»

«هل تبلّل كتابك؟»

«قليلاً»

«ماذا تدرس؟»

«القانون»

«كم سنة تبقت لك؟»

« لدي بعض التأخير، أضعت الوقت. هل تدرّسين في الجامعة؟»

«نعم»

«ماذا؟»

«أدب إنجليزي»

«رأيت أنّك تعرفين لغات كثيرة»

ضحكت.

«لا، لا أجيد أي شيء على الإطلاق، أنا أيضاً أضعت الوقت. أعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً في الجامعة، فأنا في إمرة الجميع».

تمشينا قليلاً، وارتخت أعصابي. تنقلت بين الموضوعات عله يشعر بالارتياح، فيما كنت أرى نفسي من الخارج، وقد بدوت في ثيابي امرأة محترمة. أما هو، فقد لطّخ الرمل بنطاله القصير وكنزته وخُفَّيْهِ. كنت مغتبطة، لا بل كنت أشعر بالفخر بنفسي بعض الشيء، لو رأتني بيانكا ومارتا لسخرتا مني لسنوات مديدة.

كان في سنّهما: ابن ذكر، جسمه نحيل وعصبي يتطلب الرعاية. كانت الأجساد الذكورية التي كانت تعجبني في مرحلة المراهقة كجسده، أجسام طويلة ونحيلة وسمراء جدّاً كأصحاب مارتا، لا هم قصار القامة ولا شقر، وأجسامهم ممتلئة قليلاً ومكتنزون، كأصحاب بيانكا الذين كانوا أكبر منها سنّاً بقليل، وعروقهم زرقاء كأعينهم. ولكنني أحببتهم جميعاً، أصحاب ابنتيّ الأوائل، كنت أكافئهم بعاطفة متدفقة. كنت أريد مكافأتهم، ربما لأنهم اعترفوا بجمالهما، وصفاتهما فاقتلعوهما من هاجس أن تكونا قبيحتين، ومن يقين أنّهما لا تمتلكان قوة السحر. أو ربما كنت أريد أن أكافئهم لأنهم أنقذوني أيضاً من باب المصادفة من سوء المزاج، والمشادات، والتأفف، ومحاولات تهدئتهما: أنا بشعة، أنا سمينة، أنا أيضاً كنت أشعر أنني بشعة وسمينة عندما كنت في مثل سنكما، لا أنتِ كنت جميلة، أنتما جميلتان أيضاً، لكنكما لا تفطنان إلى الطريقة التي ينظر بها

الناس إليكما. لا ينظرون إلينا بل ينظرون إليك.

إلى من كانت نظرات الرغبة مسددة؟ عندما كانت بيانكا في الخامسة عشرة من العمر ومارتا في الثالثة عشرة كان عمري أقل من أربعين عاماً. تكور جسداهما الطفوليان في الوقت نفسه تقريباً. ظللت أعتقد لبعض الوقت أنّ نظرات الرجال في الطرقات كانت موجهة إليّ كما كان الحال منذ خمسة وعشرين عاماً، كنت قد اعتدت استقبالها وتحملها. ومن ثم أدركت أن النظرات كانت تنزلق علي بقرف لتتوقف عليهما فتنبهتُ، وسعدت، وقلت لنفسي أخيراً بِأسى مشوب بالسخرية: لقد أشرف الموسم على الأفول.

غير أنّني بدأت أخصّ نفسي بمزيد من الاهتمام، كما لو أردت استبقاء الجسد الذي كنت معتادة عليه، متفادية أن يرحل. عندما كان أصدقاء الفتاتين يأتون إلى البيت كنت أحاول أن أحسّن نفسي لأستقبلهم. كنت أراهم قليلاً عندما يدخلون وعندما يرحلون وهم يحيونني بارتباك، وعلى الرغم من ذلك كنت حريصة جدا على مظهري، وتصرفاتي. كانت بيانكا تجذبهم إلى داخل غرفتها، ومارتا إلى غرفتها هي، وكنت أبقى بمفردي. كنت أريد لابنتيّ أن تكونا محبوبتين، لم أكن أطيق ألاّ تكونا كذلك، كنت أخاف من تعاستهما المحتملة. غير أنّ العبق الحسي الذي كان ينبثق منهما كان عنيفاً، ومفترساً وكنت أشعر كما لو أنّ قوّة الجذب في جسديهما قد انتُزعت من جسدي. لذا كنت أسعد عندما كانتا تقولان لي ضاحكتين إنّ الفتية رأوا فيّ أمّاً شابة وجذابة. كان يبدو لي لدقائق معدودة كما لو أنّ

أجسامنا الثلاثة قد بلغت اتساقاً لطيفاً.

في إحدى المرات تصرفتُ ربما بخفة مفرطة مع صديق لبيانكا، فتى في الخامسة عشرة من العمر حانق دائماً، شبه أخرس، مظهره قذر وتعس. عندما انصرف ناديت ابنتي، فأطلّت برأسها من باب غرفتي، هي أولاً ومن ثم مارتا من باب الفضول:

«هل راقت الحلوى لصديقك؟»

«نعم»

«كان يجب أن أضيف إليها الشوكولاتة، ولكن لم يتسنّ لي ذلك، سأفعل ذلك في المرة القادمة».

«المرة القادمة طلب إليّ أن تتحرشي به»

«بيانكا حاذري في طريقة كلامك»

«هذا ما قاله»

« لم يقل ذلك»

«قال ذلك»

أذعنت تدريجياً. ربّيت نفسي على أن أكون موجودة فقط إن شاءتا حضوري، وعلى أن أفتح فمي فقط إن طلبتا مني أن أتكلم. هذا ما كانتا تطالبانني به، وهو ما أعطيتهما إياه. ماذا كنت أريد منهما؟ هذا ما لم أفهمه أبداً، حتى الآن لست أدري.

نظرت إلى جينو، وأنا أفكر بأني سأطلب إليه أن يرافقني إلى العشاء. كما فكرت في سري أنه سيختلق عذراً، سيرفض، لا بأس. غير أنّه اكتفى بالقول بخجل:

«يجب أن أذهب لأستحم وأرتدي ثيابي»

«لا بأس بك هكذا»

«لا أحمل حتى محفظتي»

«أنا من يدعوك»

حاول جاهداً أن يحدّثني طوال فترة العشاء، حاول حتى إضحاكي، ولكن لم يكن أي قاسم مشترك يجمعنا تقريباً. كان يعلم أنّ عليه أن يسلّيني بين لقمة وأخرى، وكان يعلم أنّه يجب عليه أن يتلافى فترات الصمت الطويلة، وبذل قصارى جهده، وارتمى في شتى المسالك كحيوان تائه.

كان لديه القليل مما يقوله، حاول أن يجعلني أتكلم. لكنه كان يطرح أسئلة فجة وكنت أرى في نظرته أنّه لم يكن مهتمّاً فعلاً بإجاباتي. وعلى الرغم من أنّي حاولت أن أساعده لم أفلح في عدم استنفاد مواضيع الحديث بسرعة.

أبدى اهتمامه أولاً بما كنت أدرسه، فأخبرته أني كنت أعدّ دروس العام القادم.

«حول ماذا؟»

«أوليفيا»

«ما هي؟»

«قصة»

«هل هي طويلة؟»

ياسمين Books
t.me/yasmeenbooks

كان يحب الامتحانات القصيرة وكان يكره جدّاً الأساتذة الذين

يثقلون الطلاب بكتب يدرسونها؛ ليثبتوا أنّ امتحانهم مهمّ. كانت أسنانه ناصعة البياض وكبيرة، وكان فمه عريضاً. كانت عيناه صغيرتين أشبه بشقين. وكانت إشارات يديه كثيرة، وكان يضحك. لم يكن يعرف أي شيء عن أوليفيا، أي شيء عمّا يثير اهتمامي. كابنتيّ اللتين وقفتا وهما تكبران على مسافة حذرة من اهتماماتي، كانت دراستهما علمية، الفيزياء تماماً كوالدهما.

تحدثت قليلاً عنهما بإطراء كبير، لكن بنبرة ساخرة. أخيراً عدنا شيئاً فشيئاً إلى الأمور القليلة المشتركة بيننا: الشاطئ، والمسبح، وصاحب عمله، ورواد المسبح. حدّثني عن الأجانب الذين كانوا دائماً لطفاء تقريباً، وعن الإيطاليين المدّعين والوقحين. حدّثني بمحبة عن الأفارقة، وعن الفتيات الشرقيات اللواتي كنّ يتنقلن بين المظلات. فقط عندما بدأ الكلام عن نينا وعن عائلتها أدركت أنّني كنت هناك، في ذاك المطعم معه لهذا الغرض تحديداً.

أخبرني عن الدمية، وعن يأس الطفلة.

«بعد العاصفة الرعدية، بحثتُ في كل مكان، مشّطت الرمل حتى ساعة من الآن ولكني لم أعثر عليها»

«ستظهر»

«آمل ذلك خاصة من أجل أمها، غضبوا عليها كما لو كان الذنب ذنبها»

ذكر نينا بإعجاب.

«تقضي الإجازة هنا مذ وُلدت ابنتها. يستأجر زوجها فيلا

عند الكثبان. لا تمكن رؤية البيت من الشاطئ. فهو يقع في حرج الصنوبر، في مكان جميل».

قال إنّها فتاة مهذبة بالفعل، كانت قد أنهت دراستها الثانوية وبدأت الدراسة الجامعية.

«إنّها حلوة جدا» قلت له.

«نعم إنّها جميلة»

تحادثنا بضع مرات، كما فهمت، وأخبرته أنّها تريد استئناف الدراسة.

«تكبرني بعام واحد فقط»

« سنها خمسة وعشرون عاماً؟»

«ثلاثة وعشرون، أنا عمري اثنتان وعشرون سنة».

لزم الصمت لبرهة، ثم فجأة قال بنظرة قاتمة جعلته يبدو قبيحاً:

«هل رأيتِ زوجها؟ هل كنتِ لِتَدَعي رجلاً كهذا يتزوج ابنتكِ؟»

سألته ساخرة:

«ما الخطب فيه؟»

هزّ رأسه وأجاب بجدية:

«كل شيء. هو وأصدقاؤه وأقاربه. شقيقته لا تطاق».

«روزاريا السيدة الحامل؟»

«أتسمّين هذه سيدة؟ يُستحسَن ألاّ تتعاطي معها. لقد أثرْتِ إعجابي كثيراً أمس عندما لم تنتقلي إلى مظلة أخرى. ولكن لا تقومي بذلك مرة أخرى».

«لماذا؟»

قوّس الفتى كتفيه، هزّ رأسه منزعجاً.

«هؤلاء أشرار».

13

عدت إلى البيت وقد شارفتِ الساعة على منتصف الليل. اكتشفنا أخيراً موضوعاً يهمنا نحن الاثنين فانقضى الوقت بسرعة. علمت من جينو أنّ المرأة السمينة التي وَخَط شعرها الشيب كانت والدة نينا. كما أخبرني أنّ الرجل العجوز القاسي كان يدعى كورادو ولم يكن والد الفتاة بل زوج روزاريا. بدا كما لو كنّا نناقش فيلماً شاهده المرء من غير أن يفهم العلاقات التي تربط بين الشخصيات، ومن غير أن يعرف أحياناً الأسماء، وعندما ودّع أحدنا الآخر شعرت وكأن أفكاري اتضحت قليلاً. معلوماتي عن زوج نينا فقط ظلّت قليلة أو شبه معدومة، قال جينو إنّ اسمه توني، وكان يصل يوم السبت ويرحل صباح الاثنين. فهمت منه أنّه يكرهه ولم يكن يشاء حتى الحديث عنه. أنا أيضاً على أي حال كنت أشعر بفضول قليل جدّاً تجاه ذاك الرجل.

انتظر الفتى بلباقة أن تقفل البوابة خلفي، صعدت إلى الطابق الثالث على درج معتم قليلاً. قال إنّهم أشرار. ما عساهم يفعلون لي؟ دخلت الشقة، وفتحت الضوء، ورأيت الدمية مرة أخرى مستلقية

على الكنبة، وذراعاها تتجهان إلى السقف، وساقاها منفرجتان، وقد استدار وجهها إليّ. نبش أهل نابولي الشاطئ بحثاً عنها، وقد حرث جينو الرمل بالمشط بعزم. تنقلت في البيت، لم يكن يُسمع سوى هدير البراد في المطبخ، البلدة كذلك استسلمت للهدوء. اكتشفت عندما نظرت إلى نفسي في مرآة الحمام أنّ وجهي مشدود، وعيني منتفختان. اخترت كنزة نظيفة واستعددت للنوم على الرغم من أنّني لم أكن أشعر بالنعاس.

كانت الأمسية التي قضيتها مع جينو ممتعة لكنني شعرت أنّ شيئاً ما قد خلّف لدي ما يشبه الانزعاج. شرّعت باب الشرفة فبلغني نسيم منعش من البحر وقد خَلَت السماء من النجوم. قلت في سري إنّ نينا تعجبه، يسهل فهم ذلك. وبدلاً من أن يرقّ قلبي أو يستمتع بذلك اعترتني شكة استياء بلغت الفتاة كما لو أنّها تسلبني شيئاً ما؟ إذ تظهر يومياً على الشاطئ جاذبة إياه.

أزحت الدمية واستلقيت على الكنبة. لو كان جينو يعرف بيانكا ومارتا، تساءلتُ بحكم العادة تقريباً، أيهما كانت ستروق له أكثر؟ منذ سنوات مراهقتهما الأولى تملكتني عادة مقارنتهما ببنات جيلهن، برفيقات المدرسة اللواتي كنّ يُعْدَدْنَ جميلات ومحبوبات. كنت أشعر بشكل غامض أنّهن غريمات الفتاتين كما لو أنّهن إن تميزن بخفتهن، وجاذبيتهن، وقيافتهن، وذكائهنّ، انتزعن منهما شيئاً، وبطريقة غامضة منّي أيضاً. كنت أسيطر على نفسي مستخدمة نبرة طيّبة غير أنّي كنت أميل لأن أثبت لنفسي بصمت أنّهن كنّ جميعاً أقل جمالاً منهما،

وإنّ كنّ جميلات فإنّهن ثقيلات الظل وفارغات، وكنت أسرد على نفسي قائمة نزواتهن، وغبائهن، والعيوب المؤقتة لأجسادهن وهي تنمو. أحياناً عندما كنت أرى بيانكا أو مارتا تعانيان نتيجة الشعور بأنّهما باهِتتان، لم أكن أقدر على المقاومة، وكنت أتدخل بقسوة ضد صديقاتهنّ المفرطات في انفتاحهنّ، وفي غوايتهن، وإثارتهنّ.

كان لدى مارتا، عندما كانت في الرابعة عشرة من العمر تقريباً، رفيقة في المدرسة اسمها فلوريندا. فلوريندا وعلى الرغم من أنّها كانت في مثل عمرها لم تكن فتاة بل امرأة رائعة الجمال. عند كل حركة كانت تأتيها، وعند كل نظرة تسدّدها كنت أرى كيف كانت تطغى على ابنتي، وكنت أتألم لفكرة أنّهما تذهبان معاً إلى المدرسة، وإلى الحفلات، ولقضاء الإجازات. بدا لي من المؤكد أنّه ما دامت ابنتي باقية برفقتها، فستتفلت الحياة دائماً من بين يديها.

من جانب آخر كانت مارتا متمسكة جدّاً بصداقتها بفلوريندا، كانت منجذبة إليها بعنف، وبدت لي عملية فصلهما صعبة وخطرة. حاولت لبعض الوقت أن أواسيها بسبب تلك الصفعة الدائمة متحدثة بشكل عام من غير أن أذكر أبداً فلوريندا. كنت أقول لها باستمرار: ما أجملك يا مارتا، ما أنعمك، عيناك تشعان ذكاءً، تشبهين جدتك التي كانت آية في الجمال. كلام فارغ. فهي كانت تخال نفسها لا أقلّ جاذبية من صديقتها فحسب، بل من أختها كذلك، من جميع الأخريات، وعند سماعي كان إحباطها يزداد، كانت تقول إنّي أقول هذا الكلام لأنّني أمها، وكانت تهمس قائلة أحياناً: لا أريد سماعك

ماما، أنتِ لا تريني كما أنا، دعيني وشأني، لا تتدخلي فيّ.

في تلك الفترة كانت معدتي تؤلمني دائماً بسبب التوتر، كان ذاك إحساسي بالذنب، وكنت أشعر بأنّ أيّ ضيق يلمّ بابنتي مردّه نقصان ثابت في حبي لها. لذا سرعان ما أصبحتُ أكثر إلحاحاً. كنت أقول لها: تشبهين حقّاً أمي كثيراً، وكنت أعطيها مثالاً عن نفسي راوية لها قائلة: عندما كنت في سنك أنا أيضاً كنت على قناعة أني قبيحة، وكنت أفكر بأن أمي جميلة، أمَّا أنا فلا. كانت مارتا تجعلني أفهم وقد تعاظمت إشارات الاستياء لديها أنّها كانت تنتظر بفارغ الصبر أن أصمت.

كنت أشعر، وأنا أسعى لمواساتها، بأن لا شيء قادر على أن يواسيني، وكنت أتساءل كيف يُنتج الجمال. وكنت أتذكر تماماً كيف أنّي كنت مقتنعة، عندما كنت في سن مارتا أنّ أمي عندما وضعتني نهضت عنّي كمن يشعر بالاشمئزاز، فيبعد عنه الطبق بحركة من يده. كان يعتريني الشك في أنّها بدأت تهرب منّي مذ كنتُ داخلها على الرغم من أن الجميع، لما شببت، كانوا يقولون لي إنّي أشبهها. كان الشبه موجوداً لكنه بدا لي باهتاً. لم أطمئن حتى عندما اكتشفتُ أنّني أروق للرجال. كانت تنبعث منها حرارة ملؤها الحيوية. أمّا أنا فكنت أشعر بنفسي باردة كما لو كانت عروقي معدنية. كنت أريد أن أكون مثلها ليس فقط في صورتي في المرآة وفي جمود الصور. كنت أريد أن أكون في مثل قدرتها على الاتّساع، والتبخر في الطرقات، وفي المترو، أو في التليفريك، في المتاجر وتحت أنظار الغرباء. لا يمكن لأي أداة تكاثر أن تقبض على ذلك البخار المسحور. حتى البطن

المنتفخة لا تستطيع إنتاجه بدقة.

وفلوريندا كانت تمتلك ذلك البخار. عندما عادت فلوريندا ومارتا بعد ظهر أحد الأيام من المدرسة، فيما كانت تمطر في الخارج، رأيتهما تعبران الرواق مارتَيْنِ عبر غرفة الجلوس، وتنتعلان أحذية ثقيلة، وتلطخان بلا مبالاة الأرض بالماء والوحل، ومن ثم توجهتا إلى المطبخ، وتناولتا البسكويت بجلبة، وهما تتضاحكان، وتتنازعانه، وتقضمانه في البيت مخلفتين الفتات في كل مكان. أثارت فيّ تلك المراهقة البديعة واللامبالية كرهاً عجزت عن السيطرة عليه. قلت لها: فلوريندا أتتصرفين هكذا في بيتك، من تخالين نفسك؟ ستكنسين يا عزيزتي البيت كلّه وتمسحينه، ولن تخرجي من هنا ما لم تنتهي من ذلك. ظنّت الفتاة أنّني أمزح، ولكني تناولت المكنسة، والدلو والممسحة وناولتها إياها، ولا شك في أن تعابير وجهي كانت مريعة؛ لأنّها اكتفت بأن تتمتم قائلة: مارتا أيضاً وسّخت البيت، وحاولت مارتا أن تقول: صحيح ماما ولكن لا شك في أنّي تلفظتُ بكلمات قاسية بصرامة لا تقبل نقاشاً حتى إنّهما لزمتا الصمت فوراً. مسحت فلوريندا الأرض بحرص المرعوب.

وقفت ابنتي تتفرج، ومن ثم أغلقت باب غرفتها عليها، ولم تكلمني لعدة أيام. فهي ليست مثل بيانكا: إنها هشة تخضع أمام أوّل تغيير في النبرة، تنسحب بدون قتال. انسحبت فلوريندا شيئاً فشيئاً من حياتها، بين الحين والآخر كنت أسألها عن صديقتها فكانت تبرطم بكلمات عامة أو ترفع منكبيها من باب الرد.

إلاّ أنّ قلقي لم يتبدد. كنت أراقب ابنتيّ وهما شاردتان، وكنت أشعر تجاههما تارة بالمودة وطوراً بالبغضاء. كان يتبادر إلى ذهني أحياناً أنّ بيانكا ثقيلة الظل، الأمر الذي كان يؤلمني. ولكنني اكتشفت أنّها محبوبة جدّاً، فلديها صديقات وأصدقاء، وكنت أشعر أنّني أنا وحدي من يراها ثقيلة الظل، فكنت أشعر ناحيتها بالذنب. لم تكن تروق لي ضحكتها المتهكمة. لم أكن أحبّ عادتها تلك في المطالبة دائماً بأكثر مما يناله الآخرون: إلى المائدة مثلاً كانت تستولي على طعام أكثر من الآخرين، لا لتأكله بل لتتأكد من ألاّ تفوّت شيئاً، من ألاّ تُهمل أو تُغش. لم يكن يروق لي صمتها العنيد عندما كانت تعرف أنّها أخطأت من غير أن تقوى على الاعتراف بالخطأ.

أنتِ أيضاً مثلها كان يقول لي زوجي. ربما كان ذلك صحيحاً، فما كان يزعجني في بيانكا كان ربما مجرد انعكاسٍ للانزعاج الذي كان ينتابني تجاه نفسي. أو ربما لا، لم يكن الأمر بهذه البساطة، كانت الأمور أكثر تعقيداً. حتى عندما تعرفت في الفتاتين على خصال كنت أراها في نفسي، كنت أشعر بوجود خلل ما. كنت أشعر بأنّهما لا تعرفان استخدامها كما يجب، وأنّ الجزء الفاضل مني في جسديهما تحول عملية زرع فاشلة، إلى تقليد تافه وكنت أغضب وأشعر بالخجل.

في الواقع، وإن فكرت مليّاً، كنت أحب كثيراً من ابنتي ما كان يبدو لي غريباً. كنت أشعر أنّني كنت أحب فيهما أكثر ما أحب الملامح التي ورثتاها عن والدهما حتى بعد أن انتهى الزواج نهاية

صاخبة. أو تلك التي كانت تحيل إلى أجداد لا أعرف عنهم أي شيء. أو تلك التي كانت تبدو في خليط الأجسام اختراع مبدع اجترحته المصادفة. أي كلّما شعرت بالقرب منهما كنت أجد أنّني لا أتحمّل مسؤولية جسديهما.

إلاّ أنّ ذاك القرب الغريب قلّما كان يحدث. انزعاجهما، ألمهما، نِزاعاتهما كانت تعود لتفرض نفسها دائماً، وكنت أشعر بالمرارة وينتابني إحساس بالذنب. كنت دائماً على نحو ما مصدر معاناتهما ومتنفسَها. كانتا تتهمانني وهما تلزمان الصمت أو تصرخان. كانتا تحقدان ليس فقط على التوزيع السيء لأوجه الشبه الجليّة، بل كذلك لأوجه الشبه السرية، تلك التي فطنتا إليها في مرحلة متأخرة، إنّه بخار الأجساد بالضبط، البخار الذي يدوّخ المرء كما لو كان مشروباً كحولياً قوياً. نبرات الصوت التي بالكاد تُلتقط. حركة بسيطة، طريقة ما في إغلاق الجفنين، وابتسامة ترتسم تعبيراً على الوجه. المِشية، والكتف التي تميل أو تكاد إلى اليسار، وتأرجح الذراعين الانسيابي. طائفة من الحركات الصغيرة التي، إذ تجتمع بطريقة بعينها، تجعل بيانكا جذابة. أمّا مارتا فلا، والعكس صحيح، وتتسبب عند ذلك بالتباهي والألم أو الحقد أيضاً، لأنّه يبدو وكأن قدرة الأم توزع دائماً بإجحاف، منذ تلك الخانة الحيّة في البطن.

فمنذ تلك اللحظة وفقاً لابنتيّ تصرفتُ بقسوة. عاملت إحداهما معاملة الابنة فيما عاملت الأخرى كما لو كانت ابنة زوجي. منحتُ بيانكا صدراً عارماً، فيما تبدو مارتا فتى من غير أن تعلم أنّها جميلة

جدّاً كما هي، فكانت تلجأ إلى حمّالات الصدر المحشوة، وهي حيلة تذلّها. أتألم وأنا أراها تتألم. في صباي كان ثدياي كبيرين، ولكنهما لم يعودا كذلك منذ وُلِدَتْ. أعطيتِ أفضل ما لديك لبيانكا، كانت تكرر دائماً، أمّا أنا فأعطيتني الأسوأ. هكذا هي مارتا تدافع عن نفسها ظنّا أنّها غُبنت.

أمّا بيانكا فلا، فبيانكا حاربتني منذ صغرها. حاولت أن تنزع منّي سرّ التصرفات التي كانت تبدو رائعة في نظرها لتثبت لي أنّها كانت بدورها قادرة على الإتيان بمثلها. فهي من كشف لي أنّي أقشّر الفاكهة بحرص شديد لئلا يقصم السكين القشرة أبداً. وهو ما لم أتنبه إليه من قبل أن تفصح عن إعجابها بذلك. ممّن تعلمتُ ذلك يا ترى؟ قد يكون مرد الأمر تمسكي العنيد بالعمل الطموح والدقيق. اصنعي أفعى يا ماما كانت تقول لي وكانت تصرّ. «صانعة أفاعٍ»، عثرت مؤخراً على قصيدة بهذا العنوان لماريا غويرّا التي تعجبني كثيراً. كانت بيانكا مسحورة بالأفاعي التي أصنعها من القشور، وكان ذاك أحد ضروب السحر الكثيرة التي كانت تنسبها إليّ، وإني أنفعل الآن إذ أتحدث عن ذلك.

جرحت في أحد الصباحات إصبعها جرحاً بالغاً لتثبت لي أنّها قادرة هي أيضاً على صناعة أفعى. كانت في الخامسة من العمر وأُحبطت في الحال، انبجس الدم، والكثير من دموع الخيبة. خِفت، وصرختُ في وجهها أني لا أستطيع أن أتركها ولو للحظة بمفردها، لم يكن هناك أبداً وقت أخصّصه لنفسي. شعرتُ بأني أختنق، شعرتُ

وكأني أخون نفسي. رفضتُ طويلاً أن أقبّل جرحها، تلك القبلة التي تجعل الألم يزول. أردتُ أن أعلّمها أنّ عليها ألاّ تقوم بهذه الأمور فهي خطرة، وحدها الماما تستطيع فعل ذلك فهي كبيرة. الماما.

يا للكائنتين المسكينتين اللتين خرجتا من بطني، باتتا وحيدتين الآن في الطرف الآخر من العالم. وضعتُ الدمية على ركبتيّ لترافقني. لماذا أخذتُها؟ كانت تحرس الحب الذي يجمع بين نينا وإيلينا، تحرس الرابطَ بينهما. كانت الدليل البرّاق على أمومة لا يعكّر صفوها شيء. حملتُها إلى صدري. كثيرة هي الأشياء التي بهتت، وضاعت خلف ظهري، وعلى الرغم من ذلك ما تزال حاضرة الآن في دوامة من الصور. شعرتُ بوضوح أنّني لا أريد أن أعيد ناني حتى ولو كنتُ أشعر بالندم، وبالخوف من أن أستبقيها. قبلتُها على وجهها، وعلى فمها وضممتُها كما رأيت إيلينا تضمها. صدرت عنها غرغرة بدت لي جملة عدائية وأطلقت دفقات من اللعاب الداكن وسّخ شفتيّ والكنزة التي أرتديها.

14

نمتُ على الكنبة وباب الشرفة مفتوح، واستيقظت في ساعة متأخرة. كان رأسي ثقيلاً وعظامي تؤلمني. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والمطر يهطل، وريح قوية تهيّج البحر. بحثت عن الدمية ولكنّني لم أرها. شعرت بالقلق كما لو كان من الممكن أن تكون

قد رمت بنفسها من الشرفة أثناء الليل. نظرتُ حولي، بحثتُ تحت الكنبة، خشيتُ أن يكون أحدهم قد دخل البيت وأخذها. وجدتُها في المطبخ جالسة على الطاولة في الظل.

لا شك في أنّني وضعتُها هناك عندما ذهبتُ لأغسل فمي والكنزة.

لا يمكن الذهاب إلى البحر، الطقس سيء. وإمكانية أن أعيد ناني اليوم إلى إيلينا لم تبدُ لي ضعيفة فحسب بل مستحيلة. خرجتُ لأتناول فطوري ولأشتري الصحيفة، وما سآكله في وجبتَي الغداء والعشاء.

سادت البلدة الحركة التي تسود في الأيام التي تغيب فيها الشمس، كان المصطافون يتسوقون أو يتسكعون مبدّدين الوقت. وجدت في طريقي متجراً للألعاب على كورنيش البحر وعاودتني فكرة شراء ثياب للدمية، أقله لترتديها خلال النهار الذي كنت سأستبقيها طواله معي.

دخلتُه من باب التسلية وتحدثت مع بائعة فتية جدّاً وخدوماً جدّاً. عثرت لي على لباس داخلي، وجوارب، وحذاء، وفستان كحلي بدت من القياس المطلوب. كنت على وشك الخروج وقد وضعتُ للتو الكيس في حقيبتي عندما كدت أصطدم بكورّادو، العجوز ذي الهيئة الشريرة، ذاك الذي كنت أظنّه والد نينا فيما كان زوج روزاريا. كان في غاية الأناقة يرتدي طقماً أزرق وقميصاً ناصع البياض، وربطة عنق صفراء. بدا وكأنه لم يتعرف عليّ غير أنّ روزاريا كانت تلحق به وهي ترتدي سالوبيت للحمل لونها أخضر شاحب، وقد تعرّفت

عليّ في الحال؛ وهتفت:

«سيدة ليدا كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل نفعك المرهم؟»

شكرتها مجدداً، وقلت لها إنّ الألم قد زال هنا لاحظتُ بفرح، لا بل بانفعال بالأحرى، أن نينا كانت قادمة بدورها.

للأشخاص الذين اعتدنا أن نراهم دائماً على شاطئ البحر أثر مفاجئ عندما نلتقيهم وقد ارتدوا ثياب الخروج. بدا كورادو وروزاريا وقد تقلّصا وجمدا، كما لو كانا من ورق مقوّى. وشعرتُ كأنّ نينا لُوّنت صدفة بنعومة تضمّ داخلها مادة هلامية متحفزة لا لون لها. كان مظهر إيلينا وحدها فوضويا، كانت منكمشة وهي بين ذراعي أمها وتمص إبهامها. وعلى الرغم من أنّها كانت ترتدي هي أيضاً فستاناً جميلاً أبيض غير أنّها كانت توحي بشيء من عدم الترتيب، لا شكّ في أنّها لطّخت فستانها للتو بالبوظة على الشوكولاتة، وقد أحاط بالإبهام نفسه الذي كانت تطبق بشفتيها عليه لعابٌ دبق وبنيّ.

نظرت إلى الطفلة بانزعاج. كانت قد أرخت رأسها على كتف نينا، وكان المخاط يسيل من أنفها. شعرت بثياب الدمية في الحقيبة كما لو ثقُل وزنها، وفكرت: هذه هي الفرصة السانحة سأقول إنّي أنا من يحتفظ بناني. غير أنّ شيئاً قد التوى بعنف داخلي فسألتُ باهتمام مصطنع:

«كيف حالك يا صغيرتي؟ هل عثرت على لعبتك؟»

انتابتها ارتجافة غضب ونزعت سبابتها من فمها وحاولت أن

تضربني بقبضتها. حِدت عنها فخبّأت وجهها باستياء في عنق أمها.

«إيلينا ما هذا التصرف أجيبي السيدة» أنّبتها نينا بعصبية «قولي لها إنّنا سنعثر على ناني غداً، اليوم سنشتري دمية أجمل منها».

إلاّ أنّ الطفلة هزّت رأسها، فتمتمت روزاريا: آمل أن يصيب مرض خبيث دماغَ ذاك الذي سرقها. قالت ذلك كما لو أنّ الكائن الكامن في أحشائها كان بدوره يستشيط غضباً لتلك الإهانة، وكان يحق لها بالتالي أن تشعر بالحنق، بحنق أكبر من ذاك الذي تشعر به نينا. إلاّ أنّ كورادو أومأ بلا غير موافق. هذه أمور يقوم بها الأطفال، تمتم قائلاً، تعجبهم لعبة فيأخذونها، ثَمّ يقولون لأهلهم إنّهم عثروا عليها مصادفة. وأنا أراه هكذا عن كثب لم يظهر لي مسنّاً على الإطلاق، ولم يكن يبدو شريراً جدّاً كما بان لي عن بعد.

«أبناء كارونو ليسوا أطفالاً» قالت روزاريا. وتكلمت نينا متحدثة بلكنة محلية أكثر من المعتاد:

«قاموا بذلك عن قصد، دفعتهم أمّهم لإيذائي».

«اتصل تونينو، لم يأخذ الأطفال أي شيء».

«كارونو يكذب».

«حتى ولو كان الأمر كذلك بمجرد قولك ما تقولين ترتكبين خطأً» أنّبها كورادو «ما عسى زوجك أن يفعل إن اقتنع بكلامك؟»

حدّقت نينا إلى الإسفلت منزعجة. هزت روزاريا رأسها وتوجّهت إلي بحثاً عن التعاطف.

«زوجي طيب جدّاً، لا يمكن لك أن تتصوري كم بكت هذه

الطفلة المسكينة حتى ألّمت بها الحمى، إنّنا في منتهى الغضب».

شكّلتُ في ذهني فكرة مشوشة مفادها أنّهم نسبوا إلى عائلة كارونو، الأسرة التي جاءت على متن الزورق، على الأرجح اختفاء الدمية. رأوا من الطبيعي أن يكونوا قد قرّروا جعلهم يتعذبون من خلال جعل الطفلة تتعذب.

«الطفلة تتنفس بصعوبة، اشرقي بأنفك يا حبيبتي» قالت روزاريا لإيلينا فيما طلبت في الوقت نفسه منديلاً ورقياً بلا كلمات، بحركة آمرة من اليد. جذبتُ طرف سحّاب الحقيبة إلاّ أنّي توقفت فجأة في منتصف الطريق، خشيت أن يروا ما اشتريته وأن يطرحوا الأسئلة. ناولها زوجها بسرعة أحد مناديله، فنظّفت أنف الطفلة التي تملّصت وبدأت تركلها. عاودت إقفال السحاب وتأكدت من أنّ الحقيبة مقفولة بإحكام، ونظرت بحذر إلى البائعة. مخاوف بلهاء غضبت على نفسي. وسألت نينا:

«هل الحرارة مرتفعة؟»

«كسور قليلة» أجابتني «لا شيء يدعو للقلق» كما لو أرادت أن تثبت لي أنّ إيلينا بصحة جيدة وحاولت بابتسامة مصطنعة أن تضعها أرضاً.

رفضت الطفلة ذلك بقوة. بقيت ملتصقة بعنق أمها كما لو كانت معلقة في الفضاء وهي تصرخ وتدفع الأرض ما إن تلمسها وتركلها. بقيت نينا لبعض الوقت في وضعية غير مريحة محنية إلى الأمام ويداها تحيطان بوركي ابنتها، وهي تشد لتبعدها عنها فيما تحرص في الوقت

نفسه على أن تتلافى ركلاتها. شعرت أنّها تتأرجح بين الصبر ونفاده، بين التفهم والرغبة في الانفجار بالبكاء. ما حلّ بالصفاء الذي رأيته على الشاطئ؟ رأيت الانزعاج وقد ألفت نفسها عرضة لأنظار الغرباء وهي في تلك الحالة. منذ ساعات وهي تسعى بالتأكيد لتهدئة الطفلة عبثاً. وهي تخرج من البيت حاولت أن تواري غضبَ ابنتها تحت قناع فستان جميل وحذاء جميل. وهي نفسها كانت قد ارتدت فستاناً ناعماً خمري اللون يليق بها وقد رفعت شعرها ووضعت قرطين يمسّان فكّها البارز ويتأرجحان على العنق الطويل. حاولت أن ترى نفسها في المرآة كما كانت قبل أن تنجب ذاك الجسم، قبل أن تحكُم على نفسها بأن تضيفه للأبد إلى جسمها، إنّما بدون طائل.

بعد قليل ستشرع في الصراخ، تبادر إلى ذهني، وبعد قليل ستصفعها، ستحاول كسر الرابط هكذا. إلاّ أنّ الرابط سيلتف ويقوى في الندم والإهانة لأنّها ظهرت على الملأ كأمٍّ غير محبّة لا تشبه الأمهات التقيّات أو أمهات المجلات. إيلينا تصرخ، وتبكي، وتكمش ساقيها بعصبية كما لو كان مدخل متجر الألعاب مليئا بالأفاعي. كائنٌ مصغّر مصنوع من مادة لا عقلانية حية. كانت الطفلة ترفض الوقوف على قدميها، كانت تودّ البقاء على قدمي أمها. كانت في حالة قلق تحدس بأنّ نينا ضاقت ذرعاً، كانت تحدس ذلك من عنايتها بمظهرها للقدوم إلى البلدة، ومن رائحة الشباب المتمردة، ومن جمالها الجشع. لذا كانت تلتفّ عليها. قلت لنفسي فقدان الدمية عذرٌ. كانت إيلينا تخشى بالدرجة الأولى أن تفرّ أمّها منها.

ربما فطنت نينا إلى ذلك بدورها، أو ربما سُقِطَ في يدها فهمست في نبرة باتت فظة فجأة: كفّي، ومن ثم سوّت من وضعية ابنتها بين ذراعيها جاذبة إياها بشراسة: كفّي لا أريد أن أسمعك بعد الآن، هل فهمتِ لا أريد أن أسمعك بعد الآن، كفي عن نزواتك. وثم جذبت بقوة فستانها إلى الأمام على ركبتيها في حركة واضحة كان يُفترض أن تكون موجهة للجسد لا للثوب. ومن ثم ارتبكت وعادت للتكلم بالإيطالية(1) بعبارة تأنيب للذات علت وجهها وقالت لي مكرهة:

«عذراً لم أعد أعرف ماذا أفعل؟ إنّها تصيبني بالجنون... لقد ذهب والدها، فبتُّ هدفاً لتذمرها».

انتزعتْ عند ذلك روزاريا الطفلة من بين ذراعيها متنهدة وقائلة: تعالي عند عمتك، وهي تهمس متأثرة. هذه المرة كان من الغريب ألا تقاوم إيلينا البتة، أذعنت بسرعة حتى إنّها أحاطت عنقها بذراعيها. إساءةٌ للأم أو ربما يقينٌ بأنّ هذا الجسد الآخر الذي لم ينجب أبناء بعدُ، كان مؤقتاً أكثرَ ضيافة، فالأطفال يحبون كثيراً أولئك الذين لم يولدوا بعد، وقليلاً أو قليلاً جدّاً أولئك الذين ولدوا لتوّهم، كانت روزاريا تحملها بين الحلمتين المنتفختين، وتسندها إلى بطنها كما لو كانت مقعداً، وتحميها من سورات الغضب المحتملة لأمها الشريرة، تلك التي لم تعرف كيف تُعنى بدميتها، لا بل تلك التي أضاعتها لها. سلّمت الطفلة أمرها لروزاريا باندفاع عاطفي مبالغ به لتشير

(1) المقصود بالإيطالية هي اللغة الرسمية، أي ما يوازي الفصحى لدينا التي تتفرّع منها لهجات محلية متفاوتة في ما بينها. (المترجمة)

بخبث إلى أنّ عمتها أفضل منها، ماما عمتي أحسن: إن عاملتني كما تعامليني الآن سألجأ دائماً إليها، وسأرفض العودة إليك بعد اليوم.

«اذهبي هكذا أستريح قليلاً» قالت نينا بخيبة أمل، كان غشاء من العرق قد غطى شفتها العليا، ومن ثم توجهت إلي قائلة: «أحياناً يعجز المرء». «أعلم» أجبتها لأؤكد لها أني أقف في صفها.

إلاّ أنّ روزاريا تدخلت، وتمتمت وهي تضم الطفلة إليها: كم يجعلوننا نعاني هؤلاء، وفرقعت قُبُلاً صاخبة ومتكررة وهي تهمس وقد رقّ صوتها لفرط الحنان: جميلة، جميلة، جميلة. كانت تريد أن تدخل منذ الآن في حلقة الأمهات. كانت تظن أنّها انتظرت طويلاً ولكنّها تعلمت كل ما يخص دورها. وقرّرت أن تثبت لي تحديداً وفي الحال أنّها تعرف كيف تهدّئ إيلينا أفضل من زوجة أخيها. لذا وضعتها أرضاً قائلة هيّا كوني شاطرة وأَرِي السيدة ليدا وماما كم أنتِ شاطرة! ولم تقل الطفلة شيئاً، ظلّت واقفة إلى جانبها وهي تمص سبابتها بتعبير يائس، فيما كانت تسألني راضية عن نفسها: كيف كانت ابنتاك عندما كانتا صغيرتين كهذه الغالية هنا؟ انتابتني عند ذلك رغبة عارمة في تشويشها ومعاقبتها لأباغتها قائلة:

«ذكرياتي قليلة أو معدومة».

«مستحيل لا يمكن نسيان أي شيء يتعلق بالأبناء»

صمتُّ للحظة، ثم قلت بهدوء:

«رحلتُ، تركتهما عندما كانت الكبرى في السادسة من العمر والثانية في الرابعة»

«ماذا تقولين؟ ومن رباهما؟»

«أبوهما»

«ولم تريهما بعد ذلك؟»

«استعدتهما بعد ثلاثة أعوام»

«يا للقصة البشعة، لماذا؟»

هززتُ رأسي لا أعرف لماذا.

«كنت تعبة جدّاً» قلت لها.

ومن ثم توجهت إلى نينا التي كانت تنظر إلي كما لو لم تكن قد رأتني من قبل:

«الفرار أحياناً يساعد المرء على ألاّ يموت»

ابتسمتُ لها، وأشرت إلى إيلينا:

«لا تشتري لها أي شيء، دعي عنك ذلك، لا طائل من الأمر، ستعثرون على الدمية، طابت أوقاتكم».

أومأتُ بالتحية لزوج روزاريا الذي بدا لي وكأنه استعاد قناعه الشرير وخرجت من المتجر.

15

كنت غاضبة جدّاً على نفسي. لم أكن أتحدث أبداً عن تلك المرحلة من حياتي، لم أكن أفعل ذلك حتى مع شقيقاتي، حتى بيني وبين نفسي. في المرات التي حاولت فيها الإشارة إلى ذلك أمام بيانكا

ومارتا معاً أو أمام كلّ على حدة كانتا تستمعان إلي في صمت يشوبه الشرود، وتقولان إنّهما لا تذكران أيّ شيء، ثم ما تلبثان أن تبدّلا الحديث. وحده زوجي السابق قبل أن يتوجه إلى العمل في كندا كان ينسب لومه وحقده أحياناً إلى تلك الفترة، كان رجلاً ذكياً وحساساً، وكان يخجل هو نفسه من تلك الحقارة، وسرعان ما كان يتجاوز المسألة بدون إصرار. كان ذلك سبباً إضافياً جعلني أتساءل لماذا اعترفت بأمر على هذا القدر من الحميمية أمام غريبتين، امرأتين بعيدتين كلّ البعد عني ما كانتا لتفهما يوماً دوافعي، وكانتا بالتأكيد في تلك اللحظة تغتابانني. لم أكن أطيق ذلك ولم أكن قادرة على مسامحة نفسي، كنت أشعر بأني بتّ مكشوفة.

تسكعتُ في الساحة وأنا أحاول أن أهدّئ من روعي غير أنّ صدى الجُمل التي تلفّظت بها، وعبارة اللوم وكلماته التي صدرت عن روزاريا، وبريق بؤبؤي نينا حالت دون ذلك، لا بل غذّت انزعاجي المتشنج. لا طائل من القول بأنه لم يكن للأمر أي أهمية، وأن أتساءل: من كانت المرأتان على أي حال؟ ومتى كنت سألتقيهما مجدداً خارج إطار الإجازة؟ أدركت أن الحكم قد يساعدني في إعادة روزاريا إلى الموقع الذي تحتله بالفعل، غير أنّه لم يكن يجديني بالنسبة إلى نينا. كانت نظرتها قد انسحبت عنّي بارتعاشة من غير أن تخرجني من مجالها: كانت النظرة قد تراجعت فقط بسرعة كما لو كانت تبحث عن نقطة بعيدة في أعماق البؤبؤين حيث بإمكانها أن ترنو إليّ بلا مجازفة. تلك الحاجة الملحة إلى إقامة مسافة معي جرحتني.

سرت في كلل بين باعة شتّى أنواع البضائع، فيما كنت أراها- كما كنت قد رأيتها أحياناً في تلك الأيام- واقفة، تدير لي ظهرها، فيما كانت تدهن بالكريم، بحركات بطيئة ودقيقة، ساقيها الفتيّين وذراعيها وكتفيها وأخيراً الجلد المشدود وراء الظهر وما تيسر لها الوصول إليه، حتى إنّني شعرت أحياناً بالرغبة في أن أنهض وأقول لها دعي عنك ذلك سأساعدك كما كنت أفكر أن أفعل في صغري مع أمي، وكما فعلت غالباً مع ابنتيّ. فجأة أدركت أنّي اليوم تلو الآخر ومن غير أن أشاء ذلك أشركتُها عن بعد، بأحاسيس متعاقبة غالباً ما كانت متناقضة في ما بينها، في شيء ما كنت عاجزة عن تفسيره، ولكنّه كان يعنيني أنا بالمقام الأول. ربما لذلك أيضاً كنت الآن غاضبة. استخدمت بالغريزة ضد روزاريا لحظةً قاتمة من حياتي وفعلت ذلك لمفاجأتها، ولإخافتها بمعنى ما، كانت امرأة تبدو لي مزعجة، خبيثة. ولكني كنت أريد في الواقع أن أتحدّث عن تلك المسائل نفسها بحذر مع نينا حصراً، في مناسبة مختلفة لتفهمني.

سرعان ما استأنف المطرُ الهطول فتعيّنَ علي أن أحتمي بمبنى السوق المسقوف بين روائح السمك، والحبق، والمردكوش، والفليفلة النفاذة. هناك فيما كان الكبار والصغار يهرعون متضاحكين وقد بلّلهم المطر بدأت أشعر بالضيق. كانت روائح السوق تشعرني بالغثيان، وكان يبدو لي أنّ الحرارة تتصاعد، فكانت تنتابني لفحات حرّ فأتعرق، وكان الهواء البارد الذي يبلغني من الخارج عبر المطر يجمّد العرَق الذي يغطيني ويشعرني بالدوار. احتللت مساحة عند

المدخل، حيث يدفعني الناس الذين كانوا ينظرون إلى الماء وهو ينهمر كالشلالات، والأطفال الذين كانوا يصرخون بفرح، وقد أرعبهم البرق وكذلك الرعد. وقفت تقريباً عند العتبة ليلفحني الهواء المنعش فقط، وحاولت أن أسيطر على التوتر.

ما هذا الأمر الجلل الذي اقترفته؟ منذ سنوات طويلة كنتُ فتاة تشعر بنفسها ضائعة.. هذا صحيح. كانت آمال الشباب تبدو وكأنها قد احترقت جميعها، كان يبدو لي أنّني أسقط إلى الخلف نحو أمي، نحو جدتي، سلسلة من النساء الخرساوات والنزقات اللواتي كنت أنتمي إليهن. فرصٌ مجهضة. كانت الطموحات ما تزال حارقة يغذيها جسد شاب وخيال يراكم المشاريع لكني كنت أشعر أنّ واقع ألاعيب الجامعة، وفرصة أن أشق مساراً مهنياً محتملاً كانت تقضي على نزعتي المبدعة أكثر فأكثر. كنت أشعر بنفسي معزولة داخل رأسي من غير أن تتاح لي فرصة أن أختبر نفسي، فكان اليأس يعتريني.

عرفت أحداثاً صغيرة دقّت ناقوس الخطر، لم تكن حركاتِ انزعاج عادية، أو حساً تدميرياً موجهاً إلى الرموز بل أكثر من ذلك. الآن هي حوادث لا رأس لها ولا عقب تعود لتجول في ذهني في ترتيب لا يني يتبدل. عصرَ يومٍ شتوي مثلاً كنت أدرس في المطبخ، وكنت أعمل منذ أشهر منكبّة على نص، وعلى الرغم من أنّه كان قصيراً غير أنّي كنت عاجزة عن إنهائه. لم يكن أي شيء في مكانه، كان رأسي عبارةً عن فرضيات متعددة وكنت أخشى ألاّ يساعدني أستاذي الذي كان شجّعني على كتابته، على نشره بعد اليوم ذلك،

خشيت أن يرفضه.

كانت مارتا تلعب تحت الطاولة عند قدمي، فيما كانت بيانكا جالسة قربي وهي تتظاهر بأنها تقرأ وتكتب مقلِّدة حركاتي وتعابير وجهي. لست أدري ما جرى. ربما كلّمتني ولم أجبها، ربما أرادت أن تبدأ بإحدى لعبها التي غالباً ما كانت عنيفة. بينما كنت شاردة أبحث عن كلمات لم تَبْدُ لي ملائمة وفي محلها، شعرت بصفعة تسدّد إلى إحدى أذنيَّ.

لم تكن الضربة بالقوية فقد كانت بيانكا في الخامسة من العمر ولم تكن قادرة على إيذائي حقّاً. إلاّ أنّني انتفضت وشعرت بألم حارق كما لو أنّ خطاً أسود قاطعاً قد شقّ بإحكام أفكارا كان يصعب عليّ الاحتفاظ بها، ومع ذلك كانت بعيدة عن المطبخ الذي كنّا فيه، وعن المرق الذي أُعِدُّه للعشاء والذي كان يغلي على النار، وعن الساعة التي كانت تمضي مستهلكة الفسحة الضيقة التي كان يمكن لي أن أكرّسها لرغبتي في البحث، أو الاختراع، أو الاضطلاع بدور، أو لقدرتي على إنفاق ما أمتلكه من مال. ضربتُ الطفلة من غير أن أفكر ليس بقوة بل بالكاد بطرف أصابعي على خدّها.

لا تكرّري فعلتك قلت لها بنبرة تظاهرتُ فيها بأنني أربّيها فابتسمت وحاولت أن تضربني مجدداً، كانت على قناعة أنّنا بدأنا اللعب أخيراً. غير أنّني سبقتُها وضربتُها من جديد بقوة أكبر بقليل وأنا أقول لها حذارِ أن تكرّري فعلتك يا بيانكا، فضحكت بصوت متحشرج هذه المرة فيما ظهرت في عينيها نظرةُ ارتباك خفيف،

فعاودتُ ضربها بأطراف أصابعي المفتوحة المرة تلو الأخرى قائلة لا يمكن ضرب الماما، حذار من فعل ذلك وأخيراً فهمت أنّني لم أكن ألعب وانفجرتْ في بكاء يائس.

أشعر بدموع الطفلة تحت أصابعي وأنا أواصل ضربها. أقوم بذلك ببطء أسيطر على حركتي إنّما الفاصل بين الضربة والأخرى ما فتئ يتقلص، أضرب بتصميم، ليس هذا فعلاً تربوياً محتملاً إنّما هو عنف صريح، أكظمه لكنه حقيقي.

أُخرجي! آمرُها من غير أن أرفع صوتي، على ماما أن تعمل، وأمسك بذراعها بحسم، وأجرّها في الممر، وهي تبكي وتصرخ لكنها تواصل محاولةً ضربي وأنا أتركها هناك وأقفل الباب خلفي بقبضة حاسمة من يدي، لا أريد أن أراك بعد الآن.

16

كان هناك لوحُ زجاج كبير متموّج يعلو الباب، لست أدري ما جرى ربما أغلقت الباب بقوة شديدة ما تسبّب بضجيج عارم في الواقع فإذا بالزجاج يتشظى. ظهرت بيانكا جاحظة العينين وصغيرة وراء المستطيل الفارغ وقد توقفت عن الصراخ. نظرتُ إليها مذعورة، إلى أي حد قد أصل؟ كنت خائفة من نفسي. بقيت هي جامدة في مكانها ولم تُصَب بأذى، فيما كانت دموعها تواصل الانهيار بصمت. أجهد في عدم التفكير أبداً بتلك اللحظة، في مارتا

التي كانت تجرّ طرف تنورتي، وفي الطفلة في الممر التي كانت تحدّق إليّ بين الزجاج المحطّم، فالفكرة وحدها تجعلني أتعرق عرقاً بارداً، تقطعُ أنفاسي. أتعرّق هنا أيضاً عند مدخل السوق، أختنق، ولا أفلح في السيطرة على ضربات قلبي.

ما إن خفّ هطول المطر حتى سارعتُ إلى الارتماء في الخارج وأنا أغطّي رأسي بحقيبتي. لم أكن أعلم أين عساني أذهب، لم أكن أريد بالتأكيد العودة إلى البيت. ما جدوى قضاء الإجازة على شاطئ البحر إن كان الطقس ماطراً: تتخلل الإسفلتَ حُفرُ الماء، ثياب خفيفة جدّاً، وأقدام مبللة تغوص في أحذية لا تحميها. لم يتبق أخيراً سوى رذاذ خفيف. هممتُ باجتياز الطريق لكنّي توقفت. رأيت عند الرصيف المقابل روزاريا، وكورادو، ونينا حاملة الطفلة بين ذراعيها وقد غطّتها بوشاح خفيف. كانوا يحثّون السير، وقد خرجوا للتو من متجر الألعاب. كانت روزاريا تمسك، بخصر دمية جديدة كما لو كانت بصرّة، بدت طفلة حقيقية. لم يروني أو تظاهروا بعدم رؤيتي. تابعتُ نينا بنظري وأنا آمل أن تستدير.

عادت الشمس لتتسرب بين شقوق زرقاء صغيرة تتخلل السحاب. بلغت سيارتي، أدرت المحرك، وقدتها نحو البحر. كانت تتبادر إلى ذهني لمحاتُ وجوه وحركات بدون كلام. كانت تظهر وتختفي ولم يكن يتسنّى لي الوقت لأحبسها في فكرة ما. رفعت إصبعين إلى صدري لأبطئ ضرباته المتسارعة، أتيت بتلك الحركة كما لو كنتُ بذلك أستطيع إبطاء السيارة أيضاً. بدا لي أنّي أسرع لكنّي

لم أكن أتجاوز في الواقع الستين كيلومتراً. لا أحد يعلم من أين تأتي سرعة الانزعاج ولا كيف تتقدم. كنّا على الشاطئ، كان هناك جاني زوجي وزميلٌ له يُدعى ماتيو، ولوتشيلاّ، زوجته امرأة متعلمة جدّاً، لم أعد أذكر ما كان عملها ولكنّي أذكر أنّها كانت تزجّني في مواقف صعبة مع الطفلتين. غالباً ما كانت لطيفة، ومتفهمة، ولم تكن تنتقدني كما لم تكن خبيثة. لكنّها لم تكن قادرة على مقاومة رغبتها في أن تسحر ابنتيّ، في أن تحبّاها بشكل حصري، في أن تثبت لنفسها أنّ لديها قلباً ساذجاً وصافياً، هذا ما كانت تقوله، قلب يخفق في جوقة واحدة معهما.

كما الحال بالنسبة إلى روزاريا، في هذه الأمور قلَّ ما للفروقات الثقافية، وللفرق الطبقي من أهميةٍ. وعندما كان ماتيو ولوتشيللا يزوراننا، أو عندما كنّا نخرج معا في نزهة خارج المدينة، أو عندما كنّا نمضي الإجازة معا وهو ما حصل أحياناً، كنت أعيش في حالة من التوتر، كانت تعاستي تتعاظم. عندما كان الرجلان يتحدثان عن عملهما أو عن كرة القدم، أو عن أي أمر آخر، لم تكن لوتشيللا تتحدث معي أبداً، لم أكن أثير اهتمامها. كانت تلعب مع الطفلتين وتستقطب انتباههما، كانت تخترع ألعاباً خصيصاً لهما، وكانت تشارك فيها وهي تتظاهر أنّها في مثل عمرهما.

كنت أراها دائماً وهي تسعى إلى بلوغ هدفها في استمالتهما. وكانت تكفّ عن تكريس نفسها لهما فقط عندما كانتا ترضخان بالكامل وهما ترغبان ليس في قضاء ساعة أو ساعتين معها بل

الحياة بأكملها. كانت تتصرف كما لو كانت طفلة بشكل يزعجني. كنت قد علّمت ابنتيّ ألاّ تستخدما نبرة الأطفال، وألاّ تتدلّلا، إلاّ أنّ لوتشيللا كانت تبالغ في الدلال، كانت من تلك النساء اللواتي يتكلمن عمداً بذاك الصوت الذي ينسبه الناسُ للأطفال. كانت تتحدث بتصنُّع وتدفعهما إلى أن تحذوا حذوها وهي تجرهما إلى حالة من حالاًت التقهقر، تقهقر لفظي ومن ثم شيئاً فشيئاً إلى تقهقر يشمل سلوكهما بأكمله. وكانت عاداتُ الاستقلال التي فرضتها عليهما بصعوبة والتي كانت ضروريةً لأقتطع لنفسي فسحةً من الوقت قد بُدّدت بدقائق معدودة بقدومها. ما أن تظهر حتى كانت تتظاهر بدور الأمّ الحسّاسة، الملأى بالخيال، دائمة السعادة والاستعداد: الأم الطيبة. اللعنة عليها. كنتُ أقود السيارة من غير أن أتفادى حفر مياه المطر لا بل كنت أستهدفها عمداً فتتصاعد منها أجنحة طويلة من الماء.

كان يعود ليحتل قلبي كلُ الغضب الذي اعتراني آنذاك. من السهل، كنت أقول لنفسي، لمدة ساعة أو ساعتين أثناء النزهة، أو في الإجازة، أو خلال زيارة، ومن البسيط تسليةُ الطفلتين. لوتشيللا لم تكن تعبأ بما يلي ذلك. كانت تطيح بالنظام الذي فرضتُه، ومن ثَمّ، بعد أن تكون قد احتلت مواقعي، كانت تتراجع إلى مواقعها، كانت تكرّس نفسها لزوجها، وتهرع إلى عملها، وإلى نجاحاتها التي كانت تتفاخر بها بنبرة يغلفها التواضع الظاهري. في نهاية المطاف كنت أبقى وحدي، في حالة تأهب دائم، الأمّ الطالحة. كنت أبقى وحيدة

أرتّب البيت وقد عمّته الفوضى، وأفرض على الطفلتين سلوكاً لم تعودا تطيقانه. العمة لوتشيللا قالت، العمة لوتشيللا جعلتنا نفعل هذا وذاك. اللعنة عليها، اللعنة عليها.

أحياناً، بل نادراً، كنت أتذوق انتقاماً صغيراً لكنه زائل. كانت لوتشيللا تصل مثلاً في الوقت غير المناسب، عندما تكون الشقيقتان منخرطتين تماماً في لعبهما، حتى إنّهما كانتا ترجئان ألعاب العمة لوتشيللا، أو كانتا تملّان منها إن فُرضت عليهما. كانت تخضع للأمر الواقع إلاّ أنّها كانت تشعر بالمرارة في قرارة نفسها. كنتُ أشعر بها جريحة القلب كما لو كانت فعلاً رفيقةً استبعدتاها. أقرّ بأنّ الأمر كان يسعدني، ولكنني لم أكن أعرف استغلال ذلك، لم أعرف أبداً كيف أستغلّ نقاط القوة. كنت أَلِين في الحال، ربما كنت أخشى في سرّي أن يتراجع حبها للطفلتين ما كان يؤسفني. لذا كنت أقول عاجلاً أو آجلاً من باب التبرير: لقد اعتادتا اللعب في ما بينهما، لديهما عاداتهما قد تكونان مستقلتين جدّاً ربما. عند ذلك كانت تستعيد هدوءها، توافقني الرأي، وتبدأ شيئاً فشيئاً في انتقاد ابنتيّ، في تحديد الآفات والمشاكل. بيانكا أنانية جدّاً، أمّا مارتا فهي هشة جدّاً، إحداهما كان ينقصها الخيال، فيما كان خيال الأخرى جامحاً، الكبرى كانت شديدة التقوقع على نفسها، أمّا الصغرى فكانت نزقة ومدللة. كنت أستمع إليها فيما كان ثأري الصغير يتبدد. كنت أشعر بلوتشيللا وهي تواجه رفض الطفلتين لها محاولةً أن تهينني أنا كما لو كنت متواطئة معهما. كانت معاناتي تعود.

كان الألم الذي تسببت لي فيه آنذاك عظيماً. تفاخرُها عندما كانت تلعب معهما، أو غضبُها عندما كانتا تستبعدانها ساهَمَا في أن أعتقد أنّي أخطأت كل شيء، أنني كنت ممتلئة بنفسي وأنّني لم أكن أصلح لأكون أمّاً. اللعنة عليها، اللعنة عليها، اللعنة عليها. لا شكّ في أنّ هذا ما شعرتُ به عندما كنّا على شاطئ البحر. كانت إحدى صبيحات شهر يوليو. كانت لوتشيللا قد أحكمت سيطرتَها على بيانكا، وقد أبعدت مارتا. ربما استبعدتها من اللعب لأنّها كانت أصغر أو ربما لأنّها كانت تعتبرها أقل ذكاء، ربما لأنّها لم تكن ترضيها كما تود، لست أدري. لا شكّ في أنّها قالت لها ما جعلها تبكي وما جرحني. تركت الصغيرة تبكي قرب جاني وماتيو تحت المظلة وهما غارقان في الحديث وتناولتُ منشفتي ووضعتُها على بعد خطوات من البحر واستلقيتُ في الشمس يائسة. غير أنّ مارتا وافتني، كانت في الثانية والنصف من العمر أو ربما في الثالثة وصلت تُطقطق خطواتها لتلعب ثم استلْقت على بطنها وقد غطّاها الرمل. أكره أن يلوّثني الرمل وأكره أن يلوّث أحدهم أمتعتي. صرختُ في وجه زوجي طالبة منه أن يأتي في الحال ليأخذ الطفلة. هرع وهو يشعر أنّي في حالة من التوتر الشديد، كان يخشى سورات غضبي لأنّه كان يعرف صعوبة السيطرة عليها. فقد كنت لا أميّزُ، مؤخراً، بين المساحات العامة والمساحات الخاصة، لم أكن آبه بأن يسمعني الناس وأن يحكموا عليّ، كانت تنتابني رغبة قوية في أن أعرضَ سورات غضبي كما لو كنت على خشبة مسرح. خُذْها، صرختُ فيه، لم أعد أطيقها، لست أدري لِمَ كنت حانقة على

مارتا، تلك المسكينة الصغيرة، إن كانت لوتشيللا شريرة معها كان يُفتَرض فيّ أن أحميها، ولكنّني كنت كمن يصدّق انتقادات تلك المرأة، كانت انتقاداتها تثير غضبي ولكنّي كنت أصدّقها، كنت أظن أنّ الطفلة غبية فعلاً، كانت تتذمّرُ دائماً، لم أعد أطيق ذلك.

حملها جاني بين ذراعيه، وسدد إليّ نظرة مفادها اِهدئي؛ فأدرتُ له ظهري بغضب، وغطست في الماء لأنزع عني الرمل والحر. عندما خرجت من الماء رأيت أنّه كان يلعب مع بيانكا ومارتا إلى جانب لوتشيللا. كان يضحك، اقترب ماتّيو بدوره، غيّرت لوتشيللا رأيها، قرّرت أنّه يمكن لها أن تلعب الآن مع مارتا، أرادت أن تثبت لي أنّ ذلك ممكن.

رأيت أنّ الطفلة كانت تبتسم، كانت تشرق بأنفها، ولكنها كانت سعيدة بالفعل. لحظة، لحظتان وإذا بي أشعر أنني أخفي في معدتي طاقة مدمّرة، لمستُ لمسة عابرة إحدى أذنيَّ، اكتشفت أنني أضعت أحد القرطين. لم يكن القرط ثميناً، كان يعجبني ولكنّي لم أكن متمسكة به. غير أنّ الاضطراب بدأ يلمّ بي، صرخت قائلة لزوجي لقد أضعتُ قرطاً، اقتحمت كالصاعقة لعبتهم، وقلت لمارتا أرأيتِ جعلتني أُضيع قرطاً، قلت لها ذلك بكراهية كما لو كانت مسؤولة عن شيء بالغ الخطورة لديّ، في حياتي، ومن ثم عدت أدراجي وقلّبت الرمل بقدميّ ويديّ، جاء زوجي، وجاء ماتّيو وبدآ البحث. وحدها لوتشيللا واصلت اللعب مع الطفلتين، وأبقت نفسها على مسافة منّا، وأبقتهما على مسافة من بلبلتي.

صرخت لاحقاً في البيت في وجه زوجي أمام بيانكا ومارتا: إنني لا أريد أن أراها بعد اليوم تلك البغيضة، فأجابني زوجي أن لا بأس من ذلك حرصاً على حسن سير حياتنا. عندما تركته أقام هو ولوتشيللا علاقة. ربما كان يأمل أن تترك زوجها، أن تهتم بالطفلتين. ولكنّها لم تُقدِم على أيّ من الأمرين. أحبّته، هذا صحيح، بالتأكيد، ولكنّها بقيت مع زوجها ولم تبدِ أي اهتمام ببيانكا ومارتا. لست أدري ما حلّ بحياتها إن كانت ما تزال تقيم مع زوجها، أو انفصلت عنه وتزوجت ثانية، أو إن ربّت أبناء أنجبتهم. لم أعد أعرف أي شيء عنها. كنّا في مطلع صبانا آنذاك، من يدري ما حلّ بها، وما صارت إليه أفكارُها، وما تفعله اليوم؟

17

ركنتُ السيارة واجتزت حرج الصنوبر كان المطر يهْمي. وصلت إلى الكثبان. كان المسبح مقفراً، لم يكن جينو هناك ولا المدير كذلك. كان الشاطئ قد تحوّل بهطول المطر إلى قشرة قاتمة مضطربة تصطدم بها بخفة طبقةُ البحر البيضاء. قصدتُ مظلات أهل نابولي وتوقفتُ عند مظلة نينا وإيلينا، حيث كُدّس تحت الكراسي والأسرّة جزء من ألعاب الطفلة الكثيرة، فيما وُضع الجزء الآخر في كيس هائل من البلاستيك. فكرت أنّه على المصادفة، أو على نداء صامت أن يدفع بِنينا حتى هذا المكان وحيدة. بعيداً عن الطفلة، بعيداً عن كل شيء.

نتبادل التحية من غير أن نتفاجأ، نفتح كرسيين وننظر إلى البحر معاً، وأنقل لها بهدوء تجربتي فيما تمس يدُ إحدانا الأخرى بين الحين والآخر.

تجهد ابنتاي دائماً في أن تكونا وجهي الآخر. وهما مجدّتان ومتمكنتان، فوالدهما يضعهما على الطريق التي سلكها. بتصميم وذعر تجوبان في زوبعة العالم، ستفلحان أكثر بكثير منّا نحن والديهما. منذ سنتين عندما حدست أنّهما سترحلان لفترة أجهلها كتبتُ إليهما رسالة طويلة رويت فيها بالتفصيل ما جرى لكي أتركهما. لم أشأ أن أشرح دوافعي، ما كانت عليه على أي حال؟ بل تلك الدوافع التي أبعدتني منذ أكثر من خمسة عشر عاماً خلت. أعددتُ نسختين من الرسالة، نسخة لكلّ منهما وتركتهما في غرفتيهما. إلاّ أنّ شيئاً لم يحدث، لم تجيباني أبداً، لم تقولا لي يوماً: فلنتحدث عن الأمر. مرة وحيدة، وأمام تعبير عن المرارة من جانبي، أجابتني بيانكا وهي تخرج من باب المنزل: طوبى لك فلديك الوقت لكتابة الرسائل.

ما أغبى أن يظنّ المرء أنّه قادر على أن يروي قصته لأبنائه قبل أن يبلغوا الخمسين على الأقل. أن يطالبَ بأن ينظروا إليه كما لو كان شخصاً لا وظيفة. أن يقول: أنا قصتكم فأنتم تبدؤون مني، استمعوا إليّ... قد يجديكم ذلك نفعاً. أمّا نينا، فأنا لست قصتها، حتى إنّ نينا قد تراني كمستقبل لها. لو جلبتُ الدمية، فكرت في سري بلا ندم، كان يمكن لي أن أدفنها هنا، تحت قشرة الرمل المبللة. كان ذلك سيكون ممتازاً، وكان سيعثر عليها أحدٌ ما في اليوم التالي. إيلينا لا،

كنت أودّ أن تجدها نينا، كنت سأدنو منها، وأقول لها: هل أفرحك ذلك؟ ولكني لم أجلب الدمية، لم أفعل ذلك، لم تمرّ الفكرة حتى في خاطري. غير أنّي اشتريت ثوباً جديداً لناني، وحذاءً، فعلٌ آخر لا معنى له. أو ربما له معنى، كما هو الحال بالنسبة إلى أشياء كثيرة في حياتي، لا أستطيع إيجاده. بلغت الشط، كنت أريد أن أسير طويلاً، أن يتملّكني التعب.

تنزهت طويلاً بالفعل، وحقيبتي على كتفي وأنا أحمل في يدي نَعلي، وقدماي في الماء. التقيت بأزواج نادرة من العشاق فقط. خلال السنة الأولى من حياة مارتا اكتشفتُ أنّني لم أعد أحبّ زوجي. سنة قاسية، لم تكن الصغيرة تنام أبداً ولم تكن تدعني أنام. التعب الجسدي عدسة مكبّرة. كنت تعبة جدّاً فعجزتُ عن أن أدرس، وأفكر، وأضحك، وأبكي، وأحب ذاك الرجل البالغ الذكاء، والمفرط في التزامه في تحدي الحياة، والغائب جدّاً. الحب يتطلب الطاقة وأنا لم أعد أملكها. عندما كان يبدأ بمداعبتي وتقبيلي كانت تتملكني العصبية، كنت أشعر بأنني حافزٌ مستغلّ لمُتَعه الخاصة فحسب.

رأيت في إحدى المرات عن كثب معنى الحب. عدم المسؤولية القوي والفرح الذي ينبجس عنه. جاني من كالابريا وقد وُلد في قرية جبلية ما يزال يملك فيها بيتاً ورثه عن عائلته. بيت لا بأس به لا أكثر ولكنّ الهواء فيه نظيف والمنظر جميل. كنّا نقصده منذ سنوات طويلة مع الطفلتين في أعياد الميلاد والفصح. كنا نقوم برحلة متعبة على متن السيارة إذ كان يقود بشرود وصمت فيما كان عليّ أن أقمع نزوات

بيانكا ومارتا (كانتا تريدان في كل لحظة أن تأكلا كل ما يحلو لهما، كما كانتا تطالبان بألعاب وضعناها في صندوق السيارة، وكانتا تريدان التوقف للتبول بعد أن تكونا قد بالتا للتوّ) أو أن أسلّيهما بالأغاني. كان ثلج خفيف يهطل وكادت العتمة تحل. رأينا في إحدى الفسح المخصصة لإيقاف السيارات زوجاً من ركاب الأوتوستوب وقد اعتراهما البرد.

توقّف جاني جانباً بحسّ غريزي تقريباً فهو رجل كريم. أنا قلت له أن لا مكان في السيارة فمعنا الطفلتان أين عسانا نضعهما؟ صعد الاثنان، كانا بريطانيين، هو أشيب الشعر في الأربعين من العمر، وهي لمّا تبلغ الثلاثين بالتأكيد. كنتُ عدائية في البداية، فقد كان ذلك يعقّد الرحلة إذ كان عليّ أن أبذل مزيداً من الجهود لتهدئة الطفلتين. تحدث زوجي على وجه خاص، كانت تروق له إقامة العلاقات لا سيما مع الأجانب. كان ودياً، وكان يطرح الأسئلة من غير أن يلقي بالاً للياقات المتعارف عليها. تبيّن أنّهما تركا على حين غرة عملهما (لا أذكر ما كانا يعملان)، وعائلتيهما: المرأة تركت زوجاً شاباً. أما الرجل، فترك زوجته وثلاثة أبناء صغار السن. كانا يجوبان منذ عدة أشهر أوروبا وفي حوزتهما مال قليل جدّاً. قال الرجل بجدية: المهم هو أن نكون معاً. وافقته هي الرأي وقد توجهت إلي متلفظة لاحقّاً بكلمات من هذا القبيل: نحن مجبرون على القيام بأمور غبية كثيرة منذ صغرنا ونحن نظن أنّنا ضروريون، ما جرى لنا هو الأمر الوحيد ذو المغزى الذي حصل لي مذ ولدت. منذ تلك اللحظة أعجباني.

وعندما تعيّن علينا أن نتركهما مجدداً ليلاً على قارعة الطريق السريع أو عند محطة بنزين مقفرة؛ لأنّ الوقت كان قد حان لنسلك الطريق الداخلية قلت لزوجي: فلنصحبهما إلى بيتنا، لقد حلّ الليل والطقس بارد، وغداً نصحبهما إلى مخرج الطريق السريع القريب منا. تناولا العشاء تحت أنظار الطفلتين الخجلتين، وفتحتُ لهما كنبة قديمة تتحول سريراً. بدأت أشعر بأنّه كانت تنبجس منهما معاً، بل أيضاً من كلّ منهما على حدة، قوة كانت تنتشر بلمح البصر وتعصف بي داخلة إلى شراييني مشعلة دماغي. بدأت أتحدّث وقد أخذ مني الانفعال كل مأخذ، بدا لي وكأنّ لدي كلاماً كثيراً أقوله لهما فقط. أثنيا على إتقاني اللغة، وقد قدّمني زوجي بسخرية على أنّني باحثة استثنائية في الأدب الإنجليزي المعاصر. أزعجني ذلك، قلت لهما ما كنت أعمل عليه بالضبط، اهتمّ الاثنان كثيراً بعملي، الفتاة على نحو خاص، لم يكن ذلك يحصل أبداً.

أُعجبتُ بها على نحو خاص، كانت تُدعى برندا. كلّمتها طوال الأمسية، كنت أتخيل نفسي مكانها، حرة، على سفر، مع رجل مجهول أرغب فيه كل لحظة ويرغب فيّ كل لحظة. كل شيء يعود إلى خانة البداية. لا عادات متأصلة، ولا إحساس ضيق بتوقّع ما سيأتي. أنا كنت أنا، أنتج أفكاراً لا تجعلها تشذّ عن سِكّتها أيّ عناية سوى خيط الرغبات والأحلام الشائك. لا أحد يمسك بخناقي بعدُ على الرغم من قطع حبل الصرة. عندما استودعاني صباحاً، سألتني برندا التي كانت تلمّ قليلاً بالإيطالية إن كان ثمة شيء ما أكتبه يمكن قراءته.

شيء لي: تذوقت العبارة: شيء لي. أعطيتها مقطعاً بائساً يقع في بضع صفحات، مقالة نشرتها قبل سنتين. أخيراً مضيا وقد رافقهما زوجي إلى الطريق السريع.

رتبتُ البيت، نزعت الشراشف عن سريرهما بحرص تشوبه السويداء فيما كنت أتخيل برندا عارية وشعرت بين ساقيها بإثارة سائلة كانت الإثارة التي تعتريني. حلمت، للمرة الأولى منذ تزوجت، وللمرة الأولى منذ وُلدت بيانكا، ومارتا بأن أقول للرجل الذي أحببته، ولابنتي: يجب أن أرحل. تخيلت أن يقدّر لي أن يرافقوني هم بأنفسهم إلى الطريق السريع، هم الثلاثة ويلوّحون لي بأيديهم فيما يمضون ويتركونني هناك.

بقيت هذه الصورة. كم من الوقت بقيتُ جالسة على حافة الطريق السريع وأنا أتخيلني مكانها؟ سنة أو سنتين كما أظن قبل أن أرحل بالفعل. وقت ثقيل. لا أعتقد أنّني فكرت البتّة بأن أترك ابنتيّ. كان يبدو لي ذلك فظيعاً، فعلٌ غبي وأناني. لا بل كنت أفكر في أن أترك زوجي وكنت أبحث عن اللحظة المناسبة. تنتظر وتتعب ومن ثم تعاود الانتظار. سيحدث شيء ما وفي هذه الأثناء يتعاظم ضيق المرء وربما خطره. لم أكن قادرة على أن أهدأ حتى التعب لم يكن يهدئني.

ما أدراني منذ متى كنت أسير. نظرت إلى الساعة وعدت أدراجي نحو المسبح، كان كاحلاي يؤلمانني. كانت السماء خالية من السحاب، وكانت الشمس تسخن، وعاد الناس بكسل إلى الشاطئ، بعضهم يرتدون ثيابهم والبعض الآخر في ثياب البحر. عادت

المظلات لتُفتح، وكان الدرب على طول الشاطئ موكباً لا ينقطع يحتفل بعودة الإجازة.

رأيت مجموعة من الفتية يوزعون شيئاً ما على الرواد. عندما وصلتُ إليهم تعرّفت بهم، كانوا فتية من نابولي وأقارب لنينا. وكانوا يوزعون مناشير كما لو كانوا يلعبون، كلّ منهم يحمل رزمة. تعرّف عليّ أحدهم وقال: لا حاجة إلى أن نعطيه لتلك المرأة، ولكني أخذت المنشور على أي حال وألقيت عليه نظرة. نينا وروزاريا تصرفتا كما لو ضاع هر أو كلب. ظهرت وسط الورقة صورة بشعة لإيلينا مع دميتها. وكان هناك، بالخط العريض، رقم هاتف خلوي. وكانت أسطر قليلة تقول بنبرة تسعى لإثارة التعاطف: إن الطفلة حزينة جدّاً على فقدان دميتها. وكانوا يعِدون بمكافأة سخية لمن يعثر عليها. طويت المنشور بعناية ووضعته في الحقيبة إلى جانب ثوب ناني الجديد.

18

عدت إلى البيت بعد العشاء، وقد دوخني نبيذٌ رخيص. مررت أمام البار الذي كان يتنشق فيه جاني الهواء برفقة أصدقائه. وقف وعندما رآني، حيّاني بإيماءة، ثم رفع كأس النبيذ، كما لو كان يدعوني. لم أجبه ولم أشعر بالندم لفظاظتي.

كنت أشعر بنفسي شقية جدّاً، كان ذاك إحساساً بالتحلل، كما لو أن الريح هبّت علي أنا. كنت طوال النهار كومة مكوّمة من الغبار،

وهاأنذا أرى نفسي معلّقة في الهواء بلا شكل. رميت بالحقيبة على الكنبة، لم أفتح باب الشرفة، ولم أفتح النافذة في غرفة النوم. دخلت المطبخ لأجلب بعض الماء وأمزج داخله قطرات المنوّم الذي كنت أتناوله في مناسبات نادرة جدّاً أشعر فيها بالضيق. وفيما كنت أشرب تنبهت إلى أنّ الدمية كانت جالسة على الطاولة، وتذكرت الثوب الذي كان في حقيبتي. شعرت بالخجل، أمسكت الدمية من رأسها وحملتها إلى غرفة الجلوس ورميت بنفسي على الكنبة، وقد وضعتها في حضني على بطنها.

كانت مضحكة بأردافها الكبيرة وظهرها المشدود. قلت بصوت عالٍ وبغضب: «دعينا نرى إن كان هذا يناسبك» . أخرجتُ الثوب، واللباس الداخلي، والجوربين والحذاء. جرّبت الثوب واضعة إياه على جسمها من الخلف، القياس صحيح. غداً سأذهب مباشرة إلى نينا لأقول لها: عثرت عليها في حرج الصنوبر مساء الأمس، انظري، وقد اشتريت لها صباح اليوم ثوباً لتتمكنا من اللعب بها أنت وابنتك. تنهدتُّ متذمرة، تركت كل شيء على الكنبة، وهممت بالنهوض، لكنّي تنبهت إلى أنّ الدمية لفظت مزيداً من السائل القاتم من فمها وبقّعت تنورتي.

تفحصت شفتيها المضمومتين حول ثقب. شعرت بهما غضتين تحت أصابعي، وقد صُنعتا من بلاستيك أطرى من ذاك الذي صُنع منه سائر الجسم. فتحتهما بحذر. اتسع ثقب الفم وارتسمت ابتسامة على ثغر الدمية مظهرة اللثة وأسنان الحليب. أقفلت فمها في الحال

بقرف، وهززتها بقوة. شعرت بالماء داخلها، وتصورت مادة متحللة داخل بطنها، سائل مضغوط ومتخثر، وقد امتزج بالرمل. فكرت، وقلت في نفسي: هذه مسائل تعنيكما كأم وابنتها، لماذا زججت بنفسي فيها؟!

نمت نوماً عميقاً. وعندما حل الصباح وضعت في حقيبتي أغراض البحر، والكتب، والدفاتر، والثوب، والدمية، وتوجهتُ نحو الشاطئ. في السيارة استمعت طوال الطريق إلى الأغنية نفسها «*The man who sold the world*»، كانت جزءاً من شبابي. اجتزت حرج الصنوبر الذي برد الجو فيه، وتبلل جرّاء المطر الذي هطل في اليوم السابق. بين الحين والآخر كان يظهر على الجذوع المنشور الذي يحمل صورة إيلينا. كدت أضحك. ربما كان كورادو القاسي سيمنحني مكافأة سخية.

كان جينو شديد اللطف وأسعدتني رؤيته. كان قد وضع الكرسي ليجفّ في الشمس، ورافقني حتى مظلتي مصراً على حمل حقيبتي، ولكنه لم يرفع ولو مرة الكلفة بيننا. فتى ذكي ولبق، ينبغي أن أساعده، أن أدفعه لينهي دراسته. رحت أقرأ بشرود. جينو كذلك وهو على الشيز لونغ أخرج كتابه، وابتسم لي بطرف شفتيه، ليُدلّل على توافق ما.

نينا لم تكن قد وصلت ولا حتى إيلينا. كان هناك الفتية الذين كانوا يوزعون المناشير في اليوم السابق وقد توافدوا بلا ترتيب، متأخرين وهِنين، أولاد أعمام، وأصهار، الأقارب جميعاً. ومن بين

آخر القادمين، وكانت الساعة قد أشرفت على منتصف النهار، وصل كلٌ من روزاريا وكورادو، تقدمت روزاريا مرتدية المايوه ومبرزة بطناً هائلة لامرأة حامل ترفض الخضوع لأي حِمْية، إلاّ أنّها تحمل بطنها في الوقت نفسه بلا مبالاة ومن غير عقد، وكورادو خَلْفها وقد ارتدى قميصاً قطنياً عاري الكمين، وتبّانا وانتعل خفّين يسير بعدم اكتراث.

عاودني الإحساس بالاضطراب، تسارعت ضربات قلبي قليلاً. كان من الواضح أنّ نينا لن تأتي إلى الشاطئ. ربما كانت الطفلة مريضة. حدقت بإصرار إلى روزاريا. كانت مقطّبة الوجه ولم تنظر أبداً ناحيتي. بحثت نظراتي عن جينو ربما كان يعلم ما أجهله غير أنّ موقعه كان خالياً، وقد ترك الكتاب مفتوحاً على الشيز لونغ.

ما إن رأيت روزاريا وهي تغادر مظلتها وتسير وحدها مباعدة ما بين ساقيها متوجهة إلى الشاطئ حتى لحقت بها. لم تسعدها رؤيتي ولم تبذل أيّ جهد لإخفاء ذلك. وقد ردّت على أسئلتي أو كادت، من غير ود.

«كيف حال إيلينا؟»

«إنّها مصابة بالزكام»

«هل حرارتها مرتفعة؟»

«قليلاً»

«وماذا عن نينا؟»

« نينا مع ابنتها، ما عساها تفعل»

«رأيتُ المنشور»

باستياء قالت:

«قلت لأخي أن لا طائل من ذلك، 'مجرد أكل خراء'».

كانت تتحدث في ترجمة مباشرة للهجتها المحلية. كدت أجيبها بنعم، صحيح، مجرد أكل خراء: أنا من يحتفظ بالدمية، سأحملها الآن إلى إيلينا. غير أنّ نبرتها الفظة أثْنَتْني عن ذلك، لم أشأ أن أخبرها بالأمر، لم أشأ أن أقول ذلك لأي من أفراد العشيرة. لم أكن أشعر بهم اليوم كمشهد للفرجة وأنا أقارن بوحشة ما بينهم وبين ما كنت أذكره من طفولتي في نابولي، كنت أشعر بهم كما لو كانوا زمني، مستنقع تلك الحياة التي كنت لا أزال أنزلق إليها أحياناً حتى الآن. كانوا تماماً كالعائلة التي انسحبتُ منها عندما كنت فتاة. لم أكن أطيقهم وعلى الرغم من ذلك كانوا يستبقونني، كان جميعهم داخلي.

للوجود أحياناً هندسة ساخرة. ابتداء من سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة رُحت أَنشد الترتيب البورجوازي، أصبو إلى أن أتحدث بلغة إيطالية سليمة، وأن أحيا حياة جيدة مثقفة وفكرية. كانت نابولي تبدو لي موجةً قد تغرقني. لم أكن أتوقّع أن تحتوي المدينة أشكال سواء حياة مختلفة عن تلك التي كنت قد عرفتها وأنا طفلة، أشكالاً عنيفة، أو حسّية وغير مكترثة، أو متكلفة بفظاظة ومتمسكة بعناد بالدفاع عن انحلالها البائس. لم أكن أسعى حتى إلى إيجاد تلك الأشكال أكان ذلك في الماضي أم في حاضر محتمل. كنت قد رحلتُ كشخص احترق، فإذا به يصيح ويسلخ عن نفسه الجلد المحروق وهو يظن بذلك أنّه ينزع عن نفسه الحريق بحد ذاته.

كان أكثر ما خشيته عندما تركتُ ابنتيّ أن يحمل جاني، من باب الكسل أو الانتقام أو الضرورة، بيانكا ومارتا إلى نابولي ليضعهما في عهدة أمي وأهلي. كان القلق يخنقني وكنت أفكر: ما الذي صنعته؟ أنا فررت ولكني أتركهما تعودان إلى هناك. كانت الطفلتان ستغرقان شيئاً فشيئاً في البئر السوداء التي جئت منها، فتتنشقان سلوكها، ولغتها وكل الملامح التي محوتها عن نفسي عندما غادرت المدينة في الثامنة عشرة من العمر لأتابع دراستي في فلورنسا، مكان بعيد بدا لي في بلد آخر. قلت: جاني اِفعلْ ما تشاء، ولكن أرجوك لا تتركهما عند أهلي في نابولي. صرخ بي جاني قائلاً: إنّه سيصنع بابنتيه ما يشاء. لم يكن يحق لي أن أتدخل نظراً إلى أنّي رحلت. اعتنى بهما كثيراً في الواقع ولكن عندما أنهكه العمل، وأُجبر على السفر خارج البلاد، حملهما إلى أمي بلا تردد، إلى الشقة التي ولدتُ فيها، إلى الغرف التي تشاجرتُ فيها بشراسة لأتمكن من أن أتحرّر، وتَرَكَهُما في عهدتها لأشهر.

بلغتني أصداء ذلك، ندمتُ إلاّ أنّ ذلك لم يجعلني أتراجع. كنت بعيدة وشعرت كما لو كنت شخصاً آخر، الشخص الحقيقي أخيراً. وتركت الطفلتين في نهاية المطاف تتعرضان لجراح المدينة التي أبصرتُ النور فيها، تلك التي كنت أحسب أنّها لن تندمل في حالتي. أبلَتْ أمي بلاء حسناً في ذلك الظرف، رعتهما ولم تدّخر جهداً، ولكني لم أعرب لها عن أي امتنان لذلك أو لأي أمر آخر. والغضب المكتوم الذي كنت أغذّيه تجاه نفسي سكبته عليها. لاحقّاً عندما استعدت ابنتيّ وأعدتهما إلى فلورنسا، اتّهمتها بأنّها مهرتهما

بالضرر كما مهرتني. اتهامات مغرضة، دافعت عن نفسها، وجاء رد فعلها غاضباً، أسِفت كثيراً، ربما توفيت بعد انقضاء فترة وجيزة؛ لأنّ الاستياء الذي شعرت به سمّمها. آخر ما قالته لي قبل فترة قصيرة على وفاتها، قالته بلكنة محطمة: ينتابني بعض البرد ليدا، إني أتبوّل على نفسي فزعاً.

كمْ صرختُ في وجهها بكلمات كان ينبغي ألاّ تعبر حتى خاطري. أردت، بعد أن رجعتُ، أن أكون مسؤولة وحدي عن ابنتيّ. أحياناً كنت أظن أني صنعتهما وحدي، ولم أعد أذكر شيئاً عن جاني، أي شيء جسدي وحميم، الساقان، والجذع، والذكر، والنشوة، كما لو أنّ أحداً لم يمس الآخر يوماً. وعندما ذهب لاحقّاً إلى كندا تعزّز ذاك الإحساس، بدا لي وكأنني غذّيت الفتاتين من نفسي فحسب، وبأني أرى فيهما الخط الأنثوي لسلالتي فقط في السرّاء وفي الضرّاء. لذا تعاظم قلقي. لسنوات عدة كان أداءُ بيانكا ومارتا سيئاً في المدرسة، كانتا ضائعتين بطبيعة الحال. كنت أدفعهما، وأحفّزهما، وأضايقهما. كنت أقول لهما: ما الذي تريدان أن تصنعاه في الحياة، ما الذي تريدان أن تصبحاه، تريدان أن تعودا إلى الخلف؟ أن تتقهقرا؟ أن تلغيا كل الجهود التي بذلها أبوكما وأنا؟ أن تعودا لتكونا مثل جدتكما التي لم تحز سوى على الشهادة الابتدائية؟ كنت أهمس لبيانكا يائسة: كلّمت مدرّسيك، يا للعار الذي ألحقته بي. كنت أراهما تحيدان عن السكة، كان يبدو لي أنّهما تُمعِنان في الادعاء والجهل. كنت واثقة أنّهما كانتا ستتخبطان في الدراسة، وفي كل شيء، ومن ثم حلّت فترة شعرت

فيها بالارتياح، وفقط عندما أحسست أنّهما بدأتا تنضبطان وبدأتا تحرزان تقدماً في المدرسة، راحت ظلال النساء في عائلتي تتبدد.

يا لأُمّي المسكينة. ما ذاك السوء الذي نقلته في المحصّلة إلى الفتاتين؟! لا شيء، القليل من ألفاظ لهجتها. بفضلها تعرف بيانكا ومارتا اليوم تقليد لكنة أهالي نابولي، وبعض العبارات المستخدمة في المدينة. عندما يكون مزاجي جيداً تسخران مني. تبالغان في تقليد لهجتي حتى عبر الهاتف من كندا. تقلدان بقسوة اللكنة التي تخرج من داخل طريقتي في تكلم اللغات، أو بعض التعابير التي أستخدمها بلهجة نابولي وقد جعلتها تبدو إيطالية حقة. أكل خراء. أبتسم لروزاريا، أبحث عمّا أقوله، أتظاهر باللباقة حتى ولو أنّها هي ليست باللبقة. نعم ابنتاي تذلّانني لا سيما عندما أتكلم الإنجليزية، تخجلان من طريقتي في تكلّم تلك اللغة، كنت أفطن إلى ذلك كلّما سافرنا إلى الخارج معا. على الرغم من أنّ تلك هي لغةُ مهنتي، وكنت أظن أنّني أتكلمها بإتقان. أمّا هما، فكانتا تصرّان على القول إنّني لست بارعة، وكانتا على حق. في الواقع، وعلى الرغم من اندفاعي، لم أقطع شوطاً طويلاً. وإن شئت أستطيع أن أعود في لحظة واحدة كهذه المرأة روزاريا. قد يكلفني ذلك بعض التعب بالتأكيد فأمّي كانت تعرف الانتقال بيسر من التظاهر بأنّها سيدة برجوازية إلى تدفق تعاستها المستاء. قد يستغرقني الأمر مزيداً من الوقت ولكني سأنجح في ذلك. أمّا الفتاتان، فقد ابتعدتا بالتأكيد. هما تنتميان إلى زمن آخر، فقدتهما في المستقبل.

أبتسم من جديد بحرج. لكنّ روزاريا لا تبادلني الابتسام والحديث ينطفئ. بتُّ أتأرجح بين العدائية المتأهبة إزاء هذه المرأة والتعاطف الحزين. أتخيلها تضع مولودها بسهولة، في ظرف ساعتين ستلفظ نفسها وأخرى مثلها. في اليوم التالي ستكون قد وقفت على قدميها وسيكون حليبها كثيراً، نهرا من الحليب الدافق، وستعود للتشاجر متحفزة وعنيفة. أصبح من الواضح لي أنّها لا تريدني أن ألتقي زوجة أخيها، فهي تظنها، كما أعتقد مدعية نفسها مرهفة الحسّ، امرأة متصنّعة كانت أثناء حملها تتذمّر طوال الوقت وتتقيأ باستمرار. نينا بالنسبة إليها رخوة متراخية ومستعدة لتقبل التأثيرات السلبية كافة، وأنا بعد كل الأمور البشعة التي اعترفتُ بها لم أعد أُمثّل صديقة طيبة من صداقات الشاطئ. لذا تريد أن تحميها منّي وتخشى أن أزرع في رأسها أفكاراً غريبة. تسهر عليها باسم شقيقها الرجل ذي البطن المشقوقة. كان جينو قد قال لي إنّهم أشرار. أبقيت قدميّ في الماء لوقت قصير لم أكن أدري ما عساني أقول لها. الطقس بالأمس واليوم كان يعصف بكل مراحل حياتي. عدت للجلوس تحت المظلة. ياسمين

هناك فكرت بما يجب عليّ فعله، واتخذت قراري أخيراً. تناولت الحقيبة والحذاء ولففت رداءً حول خصري وابتعدت باتجاه حرج الصنوبر تاركة على الكرسي كتبي، وقد علّقت ثوبي على مفاصل المظلة. كان جينو قد قال إن أهل نابولي يقيمون في فيلا تقع على الكثبان خلف الحرج. تبعت الخط الفاصل بين إبر الصنوبر والرمل

في الظل وتحت الشمس. بعد قليل وقع نظري على الفيلا، بناء مطلّ من طابقين يقع بين باقات القصب، والدفلى، والأوكالبتس. كان صوت الزيزان يصم الآذان في ذاك الوقت من النهار.

توغلت داخل الدغل، كنت أبحث عن درب يقودني حتى المنزل. أخرجت في هذه الأثناء المنشور من الحقيبة، واتصلت برقم الهاتف الخلوي الذي ورد فيه. كنت آمل أن تجيب نينا. انتظرت، وفيما كان الهاتف يرن، سمعت أنين رنين هاتف خلوي بين الأوراق الكثيفة إلى يميني، ومن ثم صوت نينا وهي تقول ضاحكة: كفى، دعكَ من ذلك، دعني أجيب.

قطعت الاتصال فوراً وبحثت بأنظاري في الاتجاه الذي كان يبلغني الصوت منه، فرأيت نينا وهي ترتدي فستاناً خفيفاً فاتح اللون وقد استندت إلى جذع. كان جينو يقبلها. بدا وكأنها تقبل القبلة، وقد فتحت عينيها الفرحتين والحذرتين، فيما كانت تبعد بِرقّة اليد التي كانت تحاول العبث بجسدها.

19

سبحت، واستلقيت معرّضة ظهري للشمس، وقد دفنت وجهي بين ذراعي. من موقعي ذلك رأيت الفتى وهو يعود نازلاً الكثبان بخطى واسعة وقد حنا رأسه. بعد أن جلس مكانه حاول أن يقرأ لكنّه لم يفلح في ذلك وحدّق طويلاً على البحر. شعرت بأنّ الانزعاج

الخفيف الذي انتابني مساء اليوم السابق قد تحوّل إلى عدائية. بدا لائقاً جدّاً، وسايرني لساعات طويلة، بدا مهتماً، وحساساً. قال إنّه يخشى ردود الفعل الشرسة لأقارب نينا وزوجها، حذّرني منهم، فيما هو لم يلجم نفسه، كان يعرّض نفسه ويعرّضها لمخاطر يصعب تصورها. كان يغويها، يجذبها إليه في خضمّ هشاشتها وقد سحقها ثقل ابنتها. وكما باغتُّهما أنا كان يمكن لأي أحد أن يباغتهما. شعرت بالاستياء من الاثنين.

مباغتتهما خلّفت لديّ (لا أدري كيف أسمّيه)، اضطراباً. كان شعوراً مشوّشاً يجمع بين ما رأيته وبين ما لم أره، كان يبث فيّ حرارة وبرداً أتعرق له. كانت قبلتهما ما تزال حارقة تدفئ معدتي، كنت أشعر في فمي بمذاق اللعاب الفاتر. لم يكن ذاك بالشعور الناضج بل كان شعوراً طفولياً، شعرت كما لو كنت طفلة تتحرق شوقاً. عادت الخيالات القصيّة، والصور الزائفة والمختَرَعة، عندما كنت أتخيل في طفولتي أمي وهي تخرج من البيت سراً ليلاً ونهاراً، لتلتقي عشّاقها، وكنت أشعر على جسدي بالفرح الذي ينتابها. كان يبدو لي الآن وكأن مادّة مطاطية تستيقظ بعد أن كانت راكدة في قعر بطني منذ عقود.

نهضتُ عن الكرسي بعصبية، وأعددتُ بسرعة متاعي. أخطأتُ قلت في سري، لم يناسبني رحيل بيانكا ومارتا. ظننت ذلك لكنّني أخطأت. كم مضى من الوقت على آخر اتصال لي بهما، يجب أن أكلّمهما. نزْعُ المرساة والإحساس بالخفة ليسا بالأمر الخيّر، لا بل

هما قسوةٌ ضد الذات وضد الآخرين. يجب أن أجد الأسلوب المناسب لأقول ذلك لنينا. ما معنى قصة عاطفية صيفية كما لو كانت في السادسة عشرة من العمر فيما ابنتها مريضة؟ بدت لي استثنائية عندما كانت مع إيلينا والدمية تحت المظلة، أو تحت الشمس، أو عند شاطئ البحر. كانت كل واحدة غالباً تغرف الرمل المبلل بملعقة مثلجات متظاهرتين بأنهما تطعمان ناني. كَمْ كانتا هانئتين معا! كانت إيلينا تلعب لساعات طويلة وحيدة أو برفقة أمّها وكان من الواضح أنّها سعيدة. تبادَرَ إلى ذهني أنّه كانت هناك قوة إيروتيكية في علاقتها مع الدمية هناك إلى جانب نينا أكثر من كل الإيروس الذي كانت لتختبره وهي تكبر وتشيخ. غادرتُ الشاطئ من غير أن ألتفت ولو التفاتة واحدة إلى جينو وإلى روزاريا.

قُدتُ السيارة باتجاه البيت على الطريق الداخلية المقفرة، وقد امتلأَ رأسي بالصور والأصوات. عندما عدت إلى الطفلتين، وقد انقضى وقت طويل على ذلك، عادت الأيام لتُمْسي ثقيلة، والجنس بات ممارسة متباعدة ومن ثم هادئة لا تنطوي على أي توقعات. الرجال، حتى قبل تبادل قبلة معي، كانوا يوضحون لي بتصميم مثقف أنّهم لم يكونوا ينوون مغادرة زوجاتهم، أو أنّ عاداتهم كانت عادات عُزبٍ، ولم يكونوا يريدون التخلي عنها أو أنّهم كانوا يستبعدون تحمل مسؤولية حياتي وحياة ابنتيّ. لم أتذمّر يوماً من ذلك، لا بل بدا لي الأمر متوقعاً وبالتالي عقلانياً. كنت قد قررت أن موسم الحياة المحمومة قد انتهى، فثلاث سنوات كانت كافية.

غير أنّه في الصباح الذي رتبتُ فيه سرير برندا وعشيقها، عندما فتحت النوافذ لأمحو رائحتهما، بدا لي وكأني أكتشف في جسدي طلب متعة لا علاقة لها بمتعة أولى العلاقات الجنسية عندما كنت في السادسة عشرة من العمر، وبالجنس غير المريح وغير المرضي مع زوج المستقبل، وبالعلاقات الزوجية قبل ولادة الطفلتين وتحديداً بعد ذلك. وُلِدتْ من خلال اللقاء ببرندا ورفيقها توقعات جديدة. شعرت للمرة الأولى بما يشبه دفعة تُسدَّد إلى صدري، بأنني بحاجة إلى شيء آخر، ولكني شعرت بالانزعاج للاعتراف بذلك، بدت لي أفكاراً غير لائقة بوضعي، وبطموحات امرأة مثقفة وحكيمة.

مرّت الأيام، والأسابيع وشحُب أثر العاشقين تماماً، لكنني لم أهدأ، لا بل تنامى نوع من فوضى الخيالات. لزمت الصمت مع زوجي، ولم أحاول يوماً خرق عاداتنا الجنسية، أو حتى اللغة الإيروتيكية التي كنا قد وضعناها على مرّ السنوات. ولكني كنت أدرس، وأتسوّق، وكنت أقف في الصف لأدفع فاتورة فأضيع فجأة خلف رغبات تحرجني وتثيرني في آن معا. كنت أشعر بالخجل لا سيما عندما كانت تمتلكني فيما كنت أهتم بالطفلتين. كنت أغنّي معهما الأغاني، وأقرأ القصص قبل أن تغفوا، وأساعد مارتا على الأكل، وأغسلهما، وأُلبِسهما ثيابهما، فيما كنت أشعر بأني غير صالحة ولا أعرف كيف أهدّئ روعي.

اتصل بي أستاذي في صباح أحد الأيام من الجامعة قائلاً: إنّه دُعِي إلى مؤتمر دولي حول فورستر، نصحني بأن أذهب أيضاً، فقد

كانت تلك المادة هي التي أدرسها، اعتبر أنّ ذلك سيكون مفيداً جدّاً لعملي. أي عمل، فأنا لا أفعل شيئاً، كما لم يفعل هو شيئاً ليمهّد لي الطريق. شكرته، لم أكن أملك مالاً، لم يكن لدي ما أرتديه، كان زوجي يعاني فترة عصيبة وكان منشغلاً جدّاً. بعد أيام طويلة من العصبية والإحباط قررت عدم الذهاب. غير أنّ الأستاذ بدا غير راض. قال إني أضيع، غضبتُ، لم أكلمه لبعض الوقت. عندما اتصل مجدداً أعلمني أنّه وجد الوسيلة ليجعلني أحصل على الرحلة والإقامة مجاناً.

لم أعد قادرة على التراجع. نظّمت كل دقيقة من الأيام الأربعة التي كان يُفتَرض أن أتغيب خلالها: طعام جاهز في البراد، مساعدةُ صديقات سعيدات لخدمة عالِم مجنون بعض الشيء، وطالبة حزينة على استعداد للعناية بالطفلتين في حال اضطرّ الأب للذهاب إلى اجتماعات طارئة. رحلتُ تاركة كل شيء في أفضل ترتيب، مارتا فقط كانت تعاني من زكام خفيف.

كانت الطائرة المتوجهة إلى لندن ملأى بالأكاديميين ذائعي الصيت، وبشبّان من منافسيّ الأكثر حضوراً ونشاطاً منّي في البحث عن موقع ثابت. الأستاذ الذي دعاني أبقى مسافة معي مستغرقاً في التفكير. كان رجلاً صعب المراس لديه ابنان كبيران وزوجة مرهفة ولطيفة، كانت تجربته في التعليم طويلة، وثقافته واسعة، غير أنّ نوبات من الرعب كانت تتملّكه في كل مرة كان يجب عليه فيها أن يتحدث على الملأ. خلال الرحلة لم يكفّ عن تصحيح مداخلته

وما إن وطئنا عتبة الفندق حتى طلب مني أن أقرأها ليرى إن كانت تقنعني. قرأتُها وهدّأت من روعه قائلة: إنّها رائعة فقد كانت تلك وظيفتي، فسارع في الذهاب ولم أره طيلة صبيحة يوم العمل الأول. ظهر فقط أواخر العصر عندما كان دوره في الكلام قد حان. تلا نصَّه برصانة باللغة الإنجليزية، ولكن ونظرا إلى أنّ بعض الانتقادات قد وُجِّهت إليه انزعج وأجاب بجفاء واعتكف في غرفته ولم يخرج حتى لتناول العشاء. جلست إلى طاولة مع مرافِقين آخرين أمثالي ملازمين الصمت طوال الوقت تقريبا.

التقيته في اليوم التالي، كانت هناك مداخلة ينتظرها الجميع يلقيها البروفسور هاردي وهو باحث مرموق جدّاً من جامعة عريقة. لم يُلقِ أستاذي عليّ التحية، كان بصحبة آخرين. عثرت على مقعد في آخر القاعة، فتحت بمثابرة الدفتر الذي أدوِّن عليه ملاحظاتي. ظهر هاردي، كان في الخمسين من العمر قصير القامة نحيفها، وجهه سمح وعيناه شديدتا الزرقة. تحدّث مبقيا على نبرته المنخفضة وفوجئت وأنا أتساءل هل كان سيعجبني أن يلمسني، أن يداعبني، أن يقبلني. تحدّثَ لعشر دقائق، ومن ثم وكما لو أنّ الصوت كان يصدر من داخل هلوساتي الإيروتيكية لا من المصدح الذي كان يتكلّم عبره شعرت أنّه يلفظ اسمي وشهرتي.

لم أصدّق نفسي إلاّ أنّ الاحمرار أحرق وجهي، واصل الكلام، متحدّثٌ مفوّه، كان يستخدم النص المكتوب كمجرد أثر يتعقبه، كان يرتجل الآن. كرّر اسم الشهرة مرّة، مرتين، ثلاث مرات. رأيت

أن زملائي في الجامعة كانوا يبحثون عني في القاعة بنظراتهم، كنت أرتجف وقد تعرّقت يداي. حتى أستاذي استدار مذهولاً فبادلته النظر. كان الأكاديمي الإنجليزي يقتبس حرفياً فقرة من مقالتي، وهي الوحيدة التي كنت قد نشرتها حتى تلك اللحظة، تلك التي أعطيتها منذ فترة لبرندا. كان يقتبسها بإعجاب، وكان يناقش بدقة إحدى فقراتها، وكان يستخدمها ليمسك على نحو أفضل مفاصل كلمته. خرجت من القاعة ما إن أنهى مداخلته وبدأ التصفيق.

هرعت إلى غرفتي، شعرت كما لو أنّ كلّ سوائلي كانت تغلي تحت جلدي، كنت أمتلئ بالاعتزاز. اتصلت بفلورنسا بزوجي. صِحتُ تقريباً في الهاتف لأعلِمَه بذاك الحدث المدهش الذي حلّ بي. قال نعم أنت شاطرة، يسعدني ذلك، وأعلنَ لي أنّ مارتا مصابة بداء الحصبة بات الأمر أكيداً، فالطبيب قال إنه لا شك في ذلك. أغلقت السماعة. بَحَثَتْ الحصبةُ التي أصابت مارتا عن مكانٍ داخلي حاملةً موجة القلق إياها، ولكن عِوَضَ فراغ السنوات الأخيرة عثرت على غليانٍ فرح، انطباعِ قدرة، التشوشِ السعيد للانتصار الثقافي، ومتعةٍ جسدية. ما الحصبة فكرت في سري، بيانكا أيضاً أُصيبت بها ستُشفى. فاجأت نفسي. أنا، أنا، أنا. هذا ما أنا عليه، هذا ما أستطيع فعله، هذا ما يجب أن أفعله.

اِتّصلَ أستاذي بغرفتي. لم يكن بيننا أي رفع للكلفة، كان رجلاً متقلباً. كان يتحدّث دائماً بصوت أجش ومستاء، لم يعرني يوماً شأناً يُذكر. استسلم أمام ضغوطي كمُجازة طموح من غير أن يعِدَني بأي

شيء، ملقياً على عاتقي غالباً المهام الأكثر إثارة للضجر. إلاّ أنّه في تلك المناسبة كلّمني برقة، ارتبك، وتمتم مُثنياً على براعتي. قال من باب الكلام إنّ عليّ أن أعمل الآن بجدٍّ أكبر، حاولي أن تنهي بسرعة موضوعك الجديد، من المهمّ إصدار مادة أخرى، سأُعلِم هاردي بطريقة عملنا، سترين سيرغب في لقائك. استبعدتُ ذلك فمن أنا. أَصرَّ: هذا أمر مؤكد.

عند الغداء أراد أن أجلس إلى جواره، وأدركتُ فوراً وقد غمرتني موجة سعادة جديدة أنّ كل ما حولي كان قد تغير. من مغمورة في خدمة هذا وذاك لا يحقُّ لها حتى أن تُدلِيَ بكلمة علمية موجَزة في آخر النهار، أصبحتُ في ظرف ساعة واحدة باحثةً شابةً لديها شهرتها الدولية الصغيرة. جاء الإيطاليون كلّ بنفسه لتهنئتي شباناً وكهولاً. ومن ثم وصل بعض الأجانب. أخيراً دخل هاردي إلى القاعة، همس أحدهم في أذنه، وأومأ إلى الطاولة التي كنت أجلس إليها. نظر إلي للحظة، توجّهَ إلى طاولته. توقّف، عاد أدراجه وجاء لِيقدِّم نفسه لي بتواضع.

ومن ثم همس أستاذي في أذني قائلاً: إنّه باحثٌ جاد ولكنه يعمل كثيراً، بدأ يشيخ، وهو يشعر بالملل. وأضاف: لو كنتِ رجلاً، أو كنت قبيحة، أو عجوزاً كان سينتظر إلى طاولته التبجيل المتوقع، ومن ثم كان سيصرفك ببضعة جمل باردة ولطيفة. بدت لي تلك جملة شريرة، وعندما لمّح بخبث إلى أنّ هاردي كان سيعود نحوي بالتأكيد خلال تلك الأمسية همستُ قائلة ربما يهمُّه على نحو خاص ما كتبتُه

لا سيما أنني كتبت إسهاماً قيّماً. لم يجب، همس بنعم، ولم يعلّق عندما قلتُ له وقد أخذ مني الفرح كلّ مأخذ إنّ البروفسور هاردي دعاني للجلوس إلى طاولته لتناول العشاء.

تعشّيت مع هاردي، كنت متيقظة ومسترخية، شربت كثيراً. ثم تمشينا طويلاً، وعند عودتنا وكانت الساعة الثانية فجراً طلب مني أن أرافقه إلى غرفته. دعاني بلباقة وخفة بدون تكلف فقبلت. لطالما اعتبرت العلاقات الجنسية واقعاً نهائيا لزجاً جدّاً، الاتصال الأبعد عن الواسطة مع جسد آخر. ولكنني اقتنعت انطلاقاً من تلك التجربة أنّها نتاج الخيال المتطرف. كلّما كانت المتعة أكبر كان الآخر مجردَ حلم، ردَّ الفعل الليلي للبطن، والثديين، والفم، والدبر، ولكل صنتمتر معزول من الجلد إزاء الضربات والمداعبات لكيان غير محدد وقابل للتحديد وفقاً لضرورة اللحظة. لست أدري ما وضعتُه في ذاك اللقاء، وبدا لي وكأنني طالما أحببت ذاك الرجل حتى ولو أني تعرفت إليه للتو، وبدا أنني لم أرغب في غيره يوماً.

أنّبني جاني عند عودتي لأنني خلال أربعة أيام اتصلت مرتين فقط على الرغم من أنّ مارتا كانت مريضة. قلت إنّه كان لديّ عمل كثير، وقلت أيضاً إنّه بعد ما جرى لي عليّ أن أعمل كثيراً لأكون في المستوى المطلوب. رُحت أقضي في الجامعة من باب الاستفزاز عشر ساعات في اليوم. سعى أستاذي جاهداً بحرص غير متوقع منذ عودتنا إلى فلورنسا إلى أن أتوصل بسرعة إلى نشر مادة جديدة، وتعاون بنشاط مع هاردي لأذهب للعمل لبعض الوقت في جامعته. دخلت في

مرحلة من النشاط شديدِ الإثارة ومؤلمٍ. كنت أعمل كثيراً وأتألم في آن، فقد كان يبدو لي أنني عاجزة عن العيش من غير هاردي. كنت أكتب له رسائل طويلة وأتّصل به هاتفياً. عندما كان جاني في البيت، لا سيما في نهاية الأسبوع، كنت أهرع إلى هاتف عموميّ جارّةً ورائي بيانكا ومارتا لئلا تساوره الشكوك. كانت بيانكا تستمع إلى الاتصالات الهاتفية، وعلى الرغم من أنّها كانت بالإنجليزية إلاّ أنّها كانت تفهم كل شيء من غير أن تفهمه وكنت أعلم ذلك إلاّ أنّي لم أكن أعرف ما ينبغي فعله. كانت الطفلتان هناك إلى جواري صامتتين وضائعتين، لا أنسى ذلك، لن أنساه يوماً. على الرغم من ذلك كنت أنضح بالمتعة حتى على الرغم من أنفي، كنت أهمس بجمل مُحبّة وأجيب على تلميحات فاحشة وألّمح بدوري بفحش. كنت أحرص فقط، عندما تشدانني بطرف تنورتي، عندما كانتا تقولان إنّهما جائعتان أو إنهما تريدان المثلجات، أو عندما كانتا تطالبانني بشراء بالون من الرجل الذي يبيع البالونات على بعد خطوات منا، ألاّ أصيح كفى سأرحل لن ترياني بعد اليوم تماماً كما كانت تفعل أمي، وقد استبدّ بها اليأس. هي لم تتركنا أبداً على الرغم من أنّها كانت تصرخ قائلة ذلك. أمّا أنا، فتركت ابنتيّ تقريباً من غير أن أعلن عن نيتي.

كنت أقود كما لو لم أكن وراء المقود، لم أتنبه حتى إلى الطريق أمامي. كان هواء محروق يدخل من النوافذ. ركنت السيارة تحت البيت، كنت أرى بيانكا ومارتا أمام ناظريّ خائفتين، وصغيرتين كما كانتا صغيرتين منذ ثمانية عشر عاماً. كانت الحرارة تلفحني توجهت

تواً إلى الدوش. ماء بارد. تركت الماء يسيل عليّ طويلاً وأنا أحدّق في الرمل الذي ينزلق أسود على الساقين، والقدمين وبلاط صحن الدوش الأبيض. الحر يزول فوراً تقريباً. حلّ في جسدي برد الجناح الأعوج «The chill of the crooked wing». أتنشّف، أتدثّر. كنت قد علّمت ابنتيّ تعبير أودن صاحبة المقولة السابقة، وكانتا تستخدمانه كجملة متواطئة نتبادلها لنقول عن مكان ما إنّه لا يعجبنا أو إنّ مزاجنا متعكر أو ببساطة إن اليوم يوم بارد وبشع. ابنتان مسكينتان مجبرتان على أن تكونا مثقفتين حتى في المصطلحات العائلية وذلك منذ صغرهما. حملت الحقيبة ووضعتها على الشرفة في الشمس، قلبت محتواها على الطاولة. وقعت الدمية على جانبها، قلت لها شيئاً ما كما لو كانت قطة أو كلباً ومن ثم تنبهتُ إلى صوتي فسكتّ في الحال. قررت أن أهتمّ بناني لتكون لي رفيقة وتهدّئني. بحثت عن زجاجة الكحول، أردت أن أمحو عن وجهها وجسمها آثار قلم الحبر الجاف. حففتها بعناية لكن النتيجة لم تكن موفقة. ناني تعالي يا جميلتي، فلنرتدِ اللباس الداخلي، والجوربين والحذاء. فلنرتدِ الثوب، كم أنت أنيقة. فاجأني اسم الدلال الذي أصبحت أطلقه عليها بيني وبين نفسي بعفوية. لماذا اخترت بين الأسماء الكثيرة التي كانت تستخدمها إيلينا ونينا ذاك الاسم بالذات. نظرت إلى دفتري، لقد سجّلتها جميعاً: نيني، نيلي، نيلوتّا، نانيكيا، نانوتشا، نينيللا. ناني. في بطنك ماء يا حبيبتي. احتفظي بسوادك السائل في بطنك. في هذه الأثناء جلست تحت الشمس قرب الطاولة لأجفّف شعري وأنا أعبث به بأصابعي

بين الحين والآخر. كان البحر أخضر.

أنا أيضاً كنت أخبئ أشياء قاتمة كثيرة بصمت. الندم لنكران الجميل مثلاً، برندا هي من أعطت هاردي نصّي، قال لي ذلك بنفسه. لا أعلم لمَ كان يعرف أحدهما الآخر، لم أشأ أن أعرف ما كان يدين به أحدهما للآخر. اليوم أعرف فقط أن صفحاتي ما كانت لتحظى أبداً بالاهتمام لولا برندا. ولكنني آنذاك لم أقل ذلك لمخلوق، حتى جاني، حتى أستاذي، والأهم أنني لم أسعَ للقائها. أقررت بذلك فقط في الرسالة التي كتبتها منذ سنتين للفتاتين، تلك التي لم تقرآها حتى. كتبتُ: كنت في حاجة إلى أن أصدّق أنني فعلت كل شيء وحدي. كنت أريد أن أشعر بنفسي، وبإمكاناتي بشكل أكثر كثافة، باستقلالية خصالي. أخذتْ أحداث متلاحقة تلمّ بي كما لو كانت إثباتاً لما كنت آمله. كنت بارعة: لم أكن في حاجة إلى أن أتظاهر بأي تفوق كما كانت تفعل أمي، كنت بالفعل مخلوقاً غير اعتيادي. اقتنع أستاذي في فلورنسا أخيراً بذلك. كان الأستاذ المرموق والأنيق هاردي على قناعة بذلك، كان يبدو على قناعة أكثر من أي شخص آخر. سافرت إلى إنجلترا، عدت، وعاودت السفر. تنبّه زوجي، ما الذي يجري؟ احتجّ قائلاً إنّه لا يستطيع الاهتمام بالعمل وبالطفلتين في آن واحد. أجبته أنني سأتركه. لم يفهم؛ فقد ظنّ الأمر اكتئاباً، بحث عن الحلول، اتّصل بأمي، صرخ أنّ عليّ أن أفكر في الطفلتين. قلت له إنّني لم أعد قادرة على العيش معه، كنت في حاجة إلى أن أفهم من أنا، ما هي إمكاناتي الحقيقة، وجملاً من هذا القبيل. لم أكن أستطيع أن أصبح في

وجهه أنّي أعلم كل شيء عنّي، كانت لدي ألف فكرة جديدة، كنت أدرس، وأُحبّ رجالاً آخرين، وأغرم بكل من يقول لي إنني بارعة وذكية، ويساعدني على أن أختبر نفسي. هدأ. حاول أن يكون متفهماً لبعض الوقت، ومن ثم شعر أنّني أكذب عليه، غضب وانتقل إلى توجيه الإهانات. وما لبث أن صرخ قائلاً: افعلي ما شئتِ، ارحلي.

لم يصدّق يوماً أبداً أنني يمكنني الذهاب من غير الطفلتين. غير أنّي تركتهما له، ورحلت لشهرين ولم أتّصل أبداً. كان هو من يشلّني عن بعد معذبا إياي. لم أعد إلاّ لأنظّم كتبي وملاحظاتي تنظيماً نهائياً.

اشتريت في تلك المناسبة ثياباً لبيانكا ومارتا وحملتها لهما كهدية. أرادتا أن أساعدهما على ارتدائها، كانتا هزيلتين وحنونتين. استدعاني زوجي جانباً بعطف، وطلب منّي أن نجرّب من جديد، طفق يبكي وقال إنّه يحبني. أجبته بلا. تشاجرنا. أقفل باب المطبخ عليّ. بعد قليل سمعت طرقاً ناعماً. دخلت بيانكا جادة تتبعها أختها وقد تأخّرت عنها ببضع خطوات. تناولت بيانكا برتقالة من طبق الفاكهة، فتحت دُرجاً ومدّت إليّ سكيناً. لم أفهم، كنت ألاحق سورات غضبي، كنت أتشوَّق للفرار من ذاك البيت لأنساه، وأنسى كل شيء. هلاّ صنعتِ لنا أفعى طلبت باسم مارتا أيضاً، فابتسمت لي مارتا مشجعة. جلستا منتظرتين أمامي، تظاهرتا بأنّهما امرأتان مهذّبتان وأنيقتان في ثيابهما الجديدة. حسناً قلت لهما، أخذت البرتقالة وبدأت بتقشيرها. كانت الطفلتان تحدّقان إليّ. كنت أشعر بنظراتهما وهما تحاولان تدجيني ولكني كنت أشعر أكثر بجبروت الحياة خارجهما، ألوان جديدة،

أجساد جديدة، ذكاء جديد، لغة أمتلكها أخيراً كما لو كانت لغتي الحقيقية، ولا شيء، لا شيء على الإطلاق كان يبدو لي قابلاً للتصالح مع تلك الفسحة البيتية التي كانتا تحدقان إلّي منها منتظرتين. لو أستطيع جعلهما لا مرئيتين، لئلا أسمع بعد الآن طلبات جسديهما كما لو كانت طلبات أكثر إلحاحاً وأقوى من تلك التي تصدر عني. أنهيت تقشير البرتقالة ومضيت. ومذّاك ولثلاث سنوات لم أرهما أو أسمع صوتهما.

20

رنَّ الإنترفون، شحنة كهربائية عنيفة وصلت حتى الشرفة.

نظرت إلى الساعة تلقائياً. كانت الساعة الثانية بعد الظهر، لم أكن أعرف أحداً في البلدة على هذا القدر من الحميميّة معي ليقرع بابي في ذلك الوقت. من ثم فكرت بجينو. كان يعرف أين أقيم، ربما جاء يسألني النصح.

رنّ الإنترفون مجدداً، رنة أقل تصميماً، أقصر. غادرت الشرفة وتوجهت لأردّ:

«من؟»

«جوفاني».

تنهدت، هو أفضل من كلمات رأسي التي لا تعرف كيف تروّح عن نفسها، ضغطت الزر لفتح قفل البوابة. كنت حافية وبحثت

عن خُفّي، زررت قميصي، وسوّيت تنورتي، والشعر الذي كان ما يزال مبللاً. ما إن دَقّ الجرسَ حتى فتحتُ. رأيته أمامي وقد لوحته الشمس، شعره ناصع البياض وقد سرّحه بعناية وارتدى قميصاً فاقعاً بعض الشيء، وبنطالاً كحلياً كسرته متقنة، وانتعل حذاء لامعاً، وهو يحمل كيساً ورقياً في يده.

«سأسرق منك دقيقة فقط»

«تفضّلْ»

«رأيت السيارة فقلت لنفسي السيدة قد عادت»

«تفضّل بالدخول»

«لا أريد أن أزعجكِ ولكن إن كنتِ تحبين السمك، هذا قد اصطيد لتوّهِ»

دخل وناولني الكيس. أقفلت الباب، تناولت هديته وافتعلت ابتسامة وقلت:

«شكراً لكل هذا اللطف»

«هل تغدّيتِ؟»

«لا»

«يمكن أكل هذا السمك نيئاً إن شئت»

«أتقزّزُ من ذلك»

«إذن يؤكل مقلياً وساخناً جدّاً»

«لا أعرف كيف أنظفه»

انتقل فجأة من الخجل إلى التطفّل. كان يعرف البيت، توجه رأساً

إلى المطبخ، وبدأ بتنظيف السمك.

«سأنتهي في الحال» قال «دقيقتين فقط».

نظرت إليه بسخرية فيما كان ينتزع بخبرةٍ أمعاء تلك المخلوقات الميتة، ليقشّر بعد ذلك الحراشف كما لو أراد أن ينزع عن السمك اللمعان والألوان. فكرت أنّ أصدقاءه كانوا ينتظرون على الأرجح في البار، ليروا إن بلغت جهوده خواتيمها. فكرت بأني اقترفت خطأً إدخاله، وأنّه إن كانت فرضيتي في محلّها كان سيمكث بطريقة أو بأخرى ليجعل ما سيرويه لاحقّاً قابلاً للتصديق. لدى الذكور ما يثير دائماً الشفقة مهما بلغوا من العمر. وقاحة هشّة، وجرأة فزِعة. لم أعد أعرف اليوم إن كانوا قد أثاروا فيّ الحب أو مجرد تفهم ودود لضعفهم. فكرت أنّ جوفانّي مهما كان سيجري فعلاً كان سيتفاخر بفحولته الهائلة مع الغريبة بدون أن يتناول عقاقير وعلى الرغم من سنّه.

«أين تضعين الزيت؟»

اعتنى بعملية القلي بمهارة ملحوظة وهو يحشد كلمات عصبية كما لو أنّ أفكاره كانت أسرع من بنائه للجمل. أشاد بالماضي، عندما كان البحر مليئاً بالسمك، وعندما كان السمك لذيذاً بالفعل. تحدّث عن زوجته التي فارقت الحياة منذ ثلاث سنوات، وعن أبنائه قال أيضاً:

«ابني البكر يكبرك بسنوات عدّة»

«لا أعتقد ذلك، أنا مسنّة»

«مسنّة؟ عمرك أربعون سنة على أقصى تقدير»

«لا»

«اثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون».

«عمري ثمانية وأربعون عاما جوفانّي، ولَدَيَّ ابنتان كبيرتان إحداهما في الرابعة والعشرين والثانية في الحادية والعشرين من العمر».

«إبني عمره خمسون سنة. رُزقت به عندما كنت في سن التاسعة عشرة، زوجتي لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة».

«عمرك تسعة وستون عاما؟»

«نعم ولديّ ثلاثة أحفاد».

«لا تظهر السنّ عليك»

«إنّه المظهر فحسب».

فتحت زجاجة النبيذ الوحيدة التي كانت لديّ، نبيذ أحمر اشتريته من السوبرماركت وأكلنا السمك المقلي إلى طاولة غرفة الجلوس جالسَين أحدنا إلى جانب الآخر على الكنبة. تبيّن أنّ السمك من أشهى ما يكون، بدأت أُكثر الكلام، شعرت بأنّ وقع صوتي يطمئنني. تحدثتُ عن العمل، وعن ابنتيّ، عنهما على نحو خاص. قلت له: لم تتسبّبا لي يوماً في متاعب. أبْلتا بلاء حسناً في الدراسة، كانتا تنجحان دائماً وقد حازتا على الإجازة الجامعية حاصلتين على كامل العلامات، وأصبحتا عالمتين ممتازتين مثل أبيهما. تقيمان الآن في كندا إحداهما هناك، فلنقل لتكمل دراستها، فيما تعمل الكبرى. أنا سعيدة فقد أدّيت واجبي كأمٍّ، وأبقيتهما على مسافة من مخاطر عصرنا الراهن.

كنت أتكلّمُ وكان يستمع إلي. بين الحين والآخر كان يتحدّثُ بدوره. ابنه البكر مسّاح فيما تعمل زوجته في البريد، ابنته الثانية تزوجت فتى طيباً يمتلك كشك الصحف في الساحة، الابن الثالث هو من يجلب الهمّ له، لم يشأ أن يدرس، يجني القليل صيفاً فقط مصطحبا السياح على متن مركب، الابنة الصغرى تأخّرت قليلاً في دراستها فقد عانت من مرضٍ مستعصٍ، لكنّها الآن على وشك الحصول على إجازتها الجامعية، ستكون أوّل جامعية في العائلة.

حدّثني بحنان كبير عن الأحفاد كذلك، كانوا جميعاً أبناء ابنه البكر، أما الآخرون فلم يُنجِبوا أبناء. ساد جوٌّ لطيفٌ، بدأتُ أشعر بالارتياح، إحساس انتماء إيجابي للأشياء، مذاق السمك، كان سمكَ البوري، وكأس النبيذ، والنور الذي يشعّ من البحر ويصطدم بالزجاج. كان يحكي عن الأحفاد، فرحت أحكي عن ابنتيّ عندما كانتا صغيرتين. في إحدى المرات منذ عشرين عاماً على الثلج كمْ تسلّيْنا أنا وبيانكا. كانت في الثالثة من العمر ترتدي بزة زهرية وتعتمر قبعة إطارها من الفرو الأبيض، كانت وجنتاها شديدتي الاحمرار، صعدنا نجرُّ مزلاجاً حتى قمة جبل صغير، حيث كانت بيانكا تجلس إلى الأمام وأنا خلفها، كنت أشدّها إليّ وكنا ننزلق بأقصى سرعة، كنّا نصرخ نحن الاثنتين فرحتين، وعندما كنا نصل إلى القعر كان لون بزة الطفلة الزهري قد زال وكذلك احمرار الخدين. كان كل شيء قد اختفى تحت طبقة من نثور الجليد اللامعة، ولم تكن تُرى سوى العينين السعيدتين وشق الفم الذي كان يقول: مرة أخرى يا ماما.

فيما كنت أتكلّم لم تكن تمرّ في خاطري سوى لحظات هانئة، شعرت بحنين غير حزين إنما ممتع لجسديهما الصغيرين، ورغبتهما في تشمّمي ولحسي وتقبيلي ومعانقتي. كانت مارتا تتلصّص يومياً من نافذة البيت لتتحقق من عودتي من العمل، وما إن تلمحني حتى كانت تستحيل السيطرة عليها، كانت تفتح باب الدرج وتنزل راكضة، جسدها الصغير طري يتوق لي، كانت تركض كثيراً حتى إنني كنت أخشى أن تقع. كنت أشير إليها أن: أبطئي لا تركضي. كانت أعوامها معدودة لكنّ جسدها كان مطواعاً، وكانت واثقة من نفسها، كنت أترك الحقيبةَ وأركع فاتحة ذراعيّ لأستقبلها، وكانت تُهْرع نحو جسدي، كما لو كانت رصاصة كانت تكاد توقعني، كنت أعانقها، وكانت تعانقني.

الوقت يمرّ قلت، ويحمل معه أجسادهم الصغيرة التي تبقى فقط في ذاكرة الذراعين. يكبرون يماثلونك قامةً، يتجاوزونك. مارتا أصبحت أطول قامة مني مذ بلغت السادسة عشرة، بيانكا بقيت قصيرة، رأسها يصل إلى أذني. أحياناً تجلسان في حضني، كما كانتا تفعلان وهما طفلتان، تكلّمانني معاً، تداعبانني، تقبلانني. يساورني شكّ في أنّ مارتا كبرت وهي تشعر بالقلق تجاهي، وهي تحاول حمايتي كما لو كانت هي كبيرة وأنا صغيرة، هذا الجهد هو ما جعلها على هذا القدر من التذمر يتملكها شعور قوي في أنّها ليست في مكانها. لكنّها أمور لست واثقة منها، بيانكا مثلاً مثل أبيها، ليست اجتماعية، ولكنها أيضاً أوحت إليّ أحياناً بأنّها ومن خلال جملها الحاسمة،

والقاسية، التي تشبه الأوامر أكثر ممّا تشبه الطلبات أنها تريد أن تعيد تربيتي لصالحي. الأبناء هكذا، يحبونك حيناً مدلّلين إياك، وأحياناً يحاولون أن يصنعوك مجدداً من الصفر، مخترعين إياك من جديد كما لو أنّهم يعتبرونك لم تكبر كما يجب، وأنّ عليهم أن يعلّموك كيف تتعامل مع الحياة، والموسيقى التي يجب أن تسمعها، والكتب التي يجب أن تقرأها، والأفلام التي يجب أن تشاهدها، والكلمات التي يجب أن تستخدمها وتلك التي يجب ألاّ تستخدمها، لأنّها باتت بالية ولم يعد يتلفظ بها أحد.

«يظنّون أنّهم أعلم منّا» أكّد لي جوفاني.

«أحيانا هذا صحيح» قلت «لأنّهم يجمعون إلى ما علّمناهم ما تعلموه من غيرنا، في زمنهم هم وهو دائماً زمن آخر، لم يعد زمننا».

«إنّه أبشع»

«هذا رأيك؟»

«لقد أفرطنا في تدليلهم، باتوا متطلعين»

«لست أدري»

«عندما كنت طفلاً ماذا كنت أملك؟ مسدساً خشبياً. كنّا نثبت ملقط غسيل على المقبض، وحول الفوهة نضع قطعة مطاط. كنا نحشر حجرة صغيرة في المطاط كما لو كانت مقلاعاً وكنا نعلّق إلى الملقط الحجر وقطعة المطاط. هكذا كنّا نحشو المسدس. عندما كنّا نريد إطلاق النار كنّا نفتح الملقط فيُقذف الحجر».

نظرت إليه بتعاطف، بدأت أغيّر رأيي. بدا لي رجلاً هادئاً لم أعد

أعتقد أنّه صعد إلي ليجعل رفاقه يعتقدون أنّ علاقة ما تجمعنا. كان يبحث فقط عن القليل من الرضى ليخفف وقع خيبات الأمل. كان يريد أن يتكلم مع امرأة قادمة من فلورنسا تمتلك سيارة جميلة وترتدي ثياباً مهفهفة كما في التلفزيون وتقضي الإجازة وحيدة.

«باتوا يمتلكون كل شيء الآن، الناس يستدينون ليشتروا سخافات. زوجتي لم تكن تهدر قرشاً واحداً، لكنّ نساء اليوم يرمين المال من النافذة».

حتى تلك الطريقة في التشكي من الحاضر والماضي القريب، والنظر إلى الماضي البعيد على أنّه مثالي لم يزعجني كما كان يزعجني عادة. بدت لي تلك طريقة في جملة طرق أخرى ليقنع المرء نفسه بأنّ هناك دائماً غصناً رفيعاً في حياته يمكن أن يتمسك به فيعتاد، هناك وهو معلّق إليه، على حتمية أنّه سيقع. ما جدوى من أن أجادله، وأن أقول له: كنت داخل موجة من النساء الجديدات، حاولت أن أكون مختلفة عن زوجتك، وربما أيضاً عن ابنتك، ماضيك لا يعجبني. لم الشروع في النقاش، هذا الهدوء الساذج للكلام المكرّر أفضل؟ ومن ثم قال بحنين:

«كانت زوجتي تعطي أبناءنا عندما كانوا صغاراً لتجعلهم يهدؤون خرقة قماش تضع داخلها القليل من السكّر».

«الزعرورة»

«أتعرفينها أنت أيضاً؟»

«أعدّتها جدتي يوماً لابنتي الثانية التي كانت تبكي باستمرار ولم

نكن نعلم ما بها»

«أترين؟ أمّا الآن فيصطحبون الطفل إلى الطبيب ويعالجون الأهل والأبناء، يظنون أنّ الآباء، والأمهات، والمواليد الجدد مرضى».

وفيما كان يواصل كيل المديح للزمن الذي انقضى تذكّرتُ جدتي. كانت آنذاك في مثل سن هذا الرجل تقريباً، هذا ما أظنه، ولكنها كانت قصيرة القامة ومحدودبة وقد وُلدت عام 1916. كنتُ قد جئت في زيارة إلى نابولي مع الطفلتين، منهكة كالعادة، في خصام مع زوجي الذي كان يُفترض أن يرافقني غير أنّه قرّر البقاء في فلورنسا في اللحظات الأخيرة. كانت مارتا تصيح فقد ضاعت مصاصتها، وكانت أمي تعاتبني قائلة إنّني عودتُ الطفلتين على أن تضعا دائماً ذاك الشيء في فميهما. طفقت أتشاجر معها، كان صبري قد نفد، كانت تنتقدني دائماً. عند ذلك تناولت جدتي قطعة إسفنج وغطّتها بالسكر ووضعتها داخل قطعة من الشاش، قماش بقجة من الملبس كما أعتقد وربطت شريطاً حولها. كانت النتيجة كائناً شديد الصغر، شبحٌ يرتدي ثوباً أبيض يخفي جسده وقدميه. سكنت كما لو كنت أمام ضرب من ضروب السحر. مارتا بدورها وهي بين ذراعي جدتي أطبقت شفتيها على رأس ذاك الجني الأبيض، وكفّت عن البكاء. حتى إنّ أمي كانت فرحة، قالت إنّ أمّها كانت تُسْكتني بتلك الطريقة عندما كنت صغيرة جدّاً، فيما كانت تخرج وما إن أفطن إلى ذلك حتى كنت أبدأ بالصراخ والبكاء.

ابتسمت وقد دوّخني النبيذ، ألقيت برأسي على كتف جوفاني.

«هل تشعرين بسوء؟» سألني محرجاً:

«لا أنا بخير».

«استلقي قليلاً»

استلقيت على الكنبة وبقي جالساً إلى جانبي.

«سترتاحين عمّا قليل»

«لست تعبة جوفاني، أنا في أفضل حال» قلت له بلطف.

نظرت أبعد من الزجاج، كانت في السماء غيمة واحدة بيضاء وهزيلة، وكانت تظهر بالكاد عينا ناني الزرقاوان وهي جالسة على الطاولة وجبينها منتفخ ورأسها نصف أصلع. أرضعتُ بيانكا. أمَّا مارتا، فلم أُرضِعها على الإطلاق، لم تكن تفلح في إمساك ثديي، وكانت تبكي فكان اليأس يستبدّ بي. كنت أريد أن أكون أُمّا صالحة، أمّاً مثالية غير أنّ الجسد كان يرفض ذلك. كنت أفكّر أحياناً بنساء الماضي، وقد أنهكتهنّ كثرة الأبناء، وبالطقوس التي كانت تساعدهنّ على أن يعالجن أو يقضين على أصعب الصغار مراساً: كنَّ يتركنهم لليلة كاملة في الحرج مثلاً، أو كنّ يغطّسنهم في نبع ماؤه شديد البرودة.

«هل تريدين أن أعدّ لك القهوة؟»

«لا، شكراً، اِبقَ هنا، لا تتحرك».

أغمضت عيني. عاودت التفكير بِناني فيما ظهرها يستند إلى جذع الشجرة، فكرتُ بالجِيدِ الطويل، بصدرها. فكرتُ بِالحلمتين اللتين امتصتهما إيلينا. فكرت بطريقتها في شدّ الدمية إليها لتري الطفلة

كيف يُرضع الطفل. فكرت في الطفلة التي كانت تقلّدها، بالحركة. نعم كانت بداية الإجازة هانئة. شعرت بالحاجة إلى أن أضخم هناء تلك الأيام لأتملص من قلق هذه الأيام. في المحصلة أكثر ما نحتاجه هو العذوبة حتى ولو كانت مصطنعة. عاودت فتح عينيّ.

«زال الشحوب، كنت قد أصبحت صفراء اللون»

«البحر يتعبني أحياناً»

نهض جوفاني وقال بحذرٍ وهو يشير إلى الشرفة:

«أستأذنكِ لأدخّنَ سيجارة».

خرج وأشعل سيجارة، لحقت به.

«هل هذه لك؟» سألني مشيراً إلى الدمية ولكن كما لو أراد التلفظ بعبارة مضحكة ليمنح نفسه وقتاً وأريحية».

أومأت بالإيجاب.

«اسمها مينا، إنّها تجلب لي الحظّ».

أمسك بجذع الدمية ولكنّه بهُت، أعادها إلى مكانها.

«في داخلها ماء»

لم أُجبْ، لم أكن أعرف ما قد أقوله.

نظر إليّ نظرة حذرة، كما لو أنّ شيئاً فيّ نبهه للحظة.

«هل سمعتِ» سألني «بتلك الطفلة المسكينة التي سرقوا منها لعبتها؟».

21

فرضت على نفسي أن أعملَ، قمت بذلك معظم الليل. منذ أوائل مراهقتي تعلّمت أن أكون منضبطة جدّاً: أطرد الأفكار من رأسي، وأنوّم الآلام والإهانات، وأضع الهواجس جانباً.

توقّفتُ عن العمل عند الرابعة فجراً تقريباً. عاد الألم إلى ظهري، هناك حيث وقع عليه كوز الصنوبر. غفوت حتى التاسعة صباحاً، ثم تناولت فطوري في الشرفة أمام بحر يرتجف جرّاء الريح. كانت ناني قد بقيت في الهواء الطلق جالسة على الطاولة، كان ثوبها رطباً. لجزء من الثانية بدا لي وكأنّها تحرّك شفتيها وأنّها تمدّ لي طرف لسانها الأحمر كما لو أنها تريد ملاعبتي.

لم أكن أرغب في الذهاب إلى البحر، ولم أكن أشاء حتى الخروج من البيت. كان يضايقني أن اُضطرّ إلى المرور أمام البار، فأرى جوفاني وهو يتحدث مع أترابه، غير أنّي مع ذلك كنت أشعر أنّه من الملِحّ أن أحلّ مسألة الدمية. نظرت إلى ناني بحزن شفيف، داعبت خدّها. لم يخفّ الأسف لفكرة فقدانها لا بل تنامى. كنت مشوشةً، كان يبدو لي أحياناً أنّ إيلينا قادرة على الاستغناء عنها. أمّا أنا فلا. ومن جانب آخر تصرفتُ بإهمال فقد تركت جوفاني يدخل إلى البيت من غير أن أخبئها أولاً. فكّرت للمرة الأولى بقطع إجازتي والرحيل اليوم بالذات، أو غداً. ومن ثم سخرت من نفسي، إلى أيّ حدّ أنوي أن أجنح؟ كنت أخطّط للفرار كما لو أنّي خطفتُ طفلة لا دمية. نزعت

الأطباق واغتسلت وتزيّنتُ بعناية. ارتديت فستاناً حلوا وخرجت.

كان هناك معرضٌ يُقام في البلدة. كانت الساحة، والطريق الرئيسي، والدروب والأزقة الفرعية متاهة من البسطات وقد أُقفِلت في وجه السيارات فيما ازدحم السير عند أطراف البلدة كما لو كانت مدينة كبرى. تهت بين جمع من النساء تحديدا كنّ يبحثن بين البضائع الشديدة التنوع، فساتين، وسترات، ومعاطف، ومعاطف واقية من المطر، وقبعات، وأحذية، وأدوات للزينة، وأدوات منزلية من مختلف الأنواع، وقطع تحف حقيقية أو مزيّفة، ونباتات، وأجبان، ولحوم مقدّدة، وخضار، وفاكهة، ولوحات مناظر بحرية فظّة، وعقاقير أعشاب سحرية. أحبّ المعارض لا سيما بسطات الثياب المستعملة، وتلك التي تعرض كل ما يخطر بالبال من صناعات القرن العشرين التزيينية. أشتري كل ما يمكن شراؤه، فساتين قديمة، وأثواباً، وبناطيل، وأقراطاً، ودبابيس، وتحفاً. توقفتُ لأبحث بين المتفرقات، مِثقلة للورق من الكريستال، مكواة قديمة من الحديد، إبريق قهوة من نابولي، منظار مسرح، وحصان بحر معدني. كنت أتفحَّص دبوساً عوده براق، بالغ الطول ومدبب، قفله من العنبر الأسود عندما رنّ هاتفي الخلوي. «إنّهما ابنتاي» هكذا ظننت على الرغم من أنّ التوقيت كان مستبعداً. نظرت إلى الشاشة فلم أرَ اسم أيّ منهما، بل رقم هاتف خلوي بدا لي أنّي أعرفه. أجبت.

«السيدة ليدا؟»

«نعم»

«أنا والدة الطفلة التي أضاعت الدمية، تلك التي...»

فوجئتُ، شعرت بالقلق، والفرح وأخذ قلبي يركض في صدري.

«مرحباً نينا»

«أردت أن أتأكد مما إذا كان هذا رقم حضرتكِ»

«نعم هو رقمي»

«رأيتُ حضرتك أمس في حرج الصنوبر»

«رأيتكِ أنا أيضاً»

«أودّ أن أكلمكِ»

«حسناً قولي لي متى»

«الآن»

«الآن أنا في البلدة في المعرض»

«أعلم ذلك، فأنا أبحث عنك منذ عشر دقائق، لكني أفشل في أن أعثر عليك دائماً؛ فالحشد كثيف»

«أنا إلى جانب البِرْكة، ثمة بسطة فيها أغراض عتيقة سألزم مكاني».

ضغطتُ بإصبعين على صدري أردت أن أهدّئ ضرباته المتسارعة. تناولتُ الأغراض، تفحصتُ بعضها فحصاً آليّاً، ومن غير اكتراث. ظهرت نينا بين الجموع، وكانت تدفع إيلينا في عربتها. بين الفينة والأخرى كانت تمسك بالقبعة الكبيرة التي أهداها إياها زوجها لئلاّ يطيّرها هواء البحر.

«صباح الخير» قلتُ للطفلة التي كانت مطفأة النظرة، وهي تضع

مصّاصة في فمها «هل زالت الحمى؟»

أجابت نينا نيابة عن ابنتها:

«إنّها بخير، ولكنّها ترفض التسليم بالأمر الواقع فهي تريد دميتها»

نزعت إيلينا المصّاصة من فمها قائلة:

«يجب أن تتناول الدواء»

«ناني مريضة؟»

«لديها الطفل في بطنها»

نظرتُ إليها في حيرة.

«هل طفلها مريض؟»

تدخلت نينا وقد أُحرجت قليلاً ضاحكة:

«إنّها لعبة. شقيقة زوجي تتناول الحبوب وهي تتظاهر بأنّها تعطيها للدمية أيضاً»

«هل ناني حامل أيضاً؟»

قالت الفتاة:

«قرّرت أنّ عمّتها والدمية كلتيهما تنتظران طفلاً. أليس كذلك إيلينا؟»

طارت قبعتها فلممتها لها. كانت قد سرّحت شعرها إلى الخلف، بدا الوجه بذلك أجمل.

«شكراً لا تبقى على رأسي بسبب الهواء»

«انتظري» قلتُ لها.

سويتُ لها القبعة بعناية مستخدمة الدبوس الطويل ذا المقبض العنبري لأربطها إلى الشعر.

«لن تسقط بعد الآن. ولكن حاذري من أجل الطفلة، عقّميه جيداً في البيت، فيسهُل التسبب بخمش مؤذٍ».

سألتُ صاحب البسطة عن الثمن، أرادت نينا أن تدفع ولكنّي رفضتُ ذلك.

«إنّه أمر لا يُذكر»

من ثمّ رفعنا الكلفة وقد طلبتُ منها ذلك، فارتبكت، قالت إنّ ذلك يُخجلها، ثمَّ أذعنت. تذمَّرتْ من التعب الذي تعاني منه في تلك الفترة فقد كانت الطفلة صعبة المراس».

قالت: هيا يا صغيرتي، فلنضع جانباً هذه المصاصة، لا تسوّدي وجهنا أمام ليدا.

تحدثت بطريقة مضطربة مع ابنتها. قالت إنّ إيلينا تقهقرت مذ فقدت دميتها، كانت تريد أن تُحمل أو أن تجلس في العربة حتى إنّها عاودت استخدام المصاصة. نظرت حولها كما لو كانت تبحث عن مكان أكثر هدوءاً، دفعت العربة نحو الحديقة. زفرت، كانت فعلاً تعبة وركّزت على «تعبة»، أرادت أن أفهم أنّها لا تعني التعب الجسدي فقط. فجأة انفجرت بالضحك، ولكنّي أدركتُ أنها لا تضحك فرحاً بل كان ثمة ضيقٌ ما ينبع من ضحكها.

«أعلم أنكِ رأيتني مع جينو، ولكن يجب ألاّ تسيئي الظن»

«أنا لا أسيء الظن بأي شيء أو بأحد»

«نعم، يسهل إدراك ذلك منذ الوهلة الأولى. مذ رأيتُك قلت لنفسي أودّ أن أكون مثل تلك السيدة»

«ما المميز فيّ؟»

«إنكِ جميلة، ومرهفة، ومن الواضح أنّك تعرفين أموراً كثيرة»

«لا أعرف أيّ شيء»

هزّت رأسها بشدة.

«تتصرفين بالكثير من الثقة بالنفس، لا تخشين شيئاً على الإطلاق. أدركتُ ذلك مذ وصلتِ أوّل مرة إلى الشاطئ. كنت أنظر إليكِ وكنت آمل أن تنظري ناحيتي غير أنّك لم تكوني تفعلين أبداً»

جُلنا قليلاً في دروب الحديقة، عاودت الحديث عن حرج الصنوبر، عن جينو.

«ما رأيتِه لا يعني شيئاً على الإطلاق»

«دعكِ من الأكاذيب»

«صدقيني، أُبعِده وأُبقِي شفتي مضمومتين. أريد فقط أن أعود لبرهة فتاةً إنّما ليس عن حق»

«كم كان عمركِ عندما ولدت إيلينا؟»

«تسعة عشر عاماً، إيلينا قد أتمّت الثالثة تقريباً»

«ربما أصبحتِ أماً في وقت مبكر جدّاً»

«أنا سعيدة بإيلينا. أنا سعيدة بكل شيء. الذنب ذنب هذه النهارات فحسب. يا ليتني أستطيع أن أُمسك بذاك الذي يجعل ابنتي تتعذب...»

«ماذا كنت ستفعلين به؟!» قلت لها ساخرة.

«كنت سأعرف كيف أتدبر أمره».

وضعتُ يديّ بالكاد على ذراعها كما لو أردتُ تهدئتها. شعرت أنّها تقلّد من باب الواجب النبرات والتعابير التي تستخدمها عائلتها، حتّى إنّها كانت قد فخّمت لهجة أهل نابولي لتبدو أكثر قدرة على الإقناع، شعرت بما يشبه الحنان.

«أنا بخير» ردّدتْ أكثر من مرة، وأخبرتني كيف أُغرِمَتْ بزوجها. تعرّفت عليه في ملهى ليلي عندما كانت في السادسة عشرة من العمر. كان يحبّها ويعبدها هي والطفلة. ضحكت مجدداً بعصبية.

«يقول إنّ ثدييّ من مقاس يديه بالضبط»

بدت لي الجملة فظة، قلت:

«وماذا لو رآكِ كما رأيتُك أنا؟»

استعادت نينا جدّيتها.

«لذبحني»

نظرتُ إليها، وإلى الطفلة.

«ما الذي تتوقعينه منّي؟»

هزّت برأسها وتمتمت:

«لستُ أدري، أن نتكلم قليلاً. عندما أراكِ على الشاطئ أفكّر أنني أود أن أبقى طوال الوقت تحت مظلتك لنتحدث. ولكن لا شكّ أنّكِ كنت ستضجرين فأنا غبية. قال لي جينو إنّك أستاذة في الجامعة. تسجلتُ في كلية الآداب بعد حصولي على الشهادة الثانوية

ولكنّي قدّمتُ امتحانين فقط».

«ألا تعملين؟»

«زوجي يعمل»

«ما هو عمله؟»

أبعدت السؤال بحركة مشاكسة وعبرت عينيها التماعةٌ عدائيةٌ. قالت:

«لا أريد أن أتكلّم عنه: روزاريا تتسوق، قد تتصل بي بين اللحظة والأخرى وبذلك يكون الوقت قد انقضى».

«ألا تريدكِ أن تتكلمي معي؟»

بان عليها تعبير غضب.

«بالنسبة إليها فلا يجب أن آتي بحركة»

صمتت للحظة ثم قالت بغير ثقة:

«هل تسمحين بأن أطرح عليكِ سؤالاً محرجاً؟»

«تفضلي»

«لماذا تركتِ ابنتيك؟»

فكرتُ في ذلك، بحثتُ عن إجابة قد تساعدها.

«كنت أحبّهما جدّاً، وبدا لي أنّ حبّي لهما كان يمنعني من أكون أنا نفسي».

لاحظتُ أنّها كفّت عن الضحك باستمرار، كانت متنبهة الآن لكل كلمة أتلفظ بها.

«ألم تريهما أبداً لثلاث سنوات؟»

أومأت بالإيجاب.

«وما كان شعوركِ من دونهما؟»

«حسناً، كان كما لو أنّ كلّ شيء ينهار، كانت قطعي تسقط بحرية من الجوانب كلّها بإحساس رضا»

«ألم تكوني تشعرين بالألم؟»

«لا كنت مأخوذة جدّاً بحياتي. ولكن كنت أشعر بثِقل هنا، كما لو كان ينتابني ألم في بطني، وكنت أستدير وقد أصابتني غصّة في القلب في كلّ مرة أسمع فيها طفلاً ينادي ماما».

«وإذا لم تكوني سعيدة، فأنت تعيسة».

«كنت كمَنْ يتملّك وجوده وتنتابه في آن واحد طائفة من الأحاسيس بما في ذلك شوق لا يُطاق».

نظرت إليّ بعدائية.

«إن كنتِ سعيدة، فلِمَ عدتِ؟»

اخترتُ الكلمات بعناية.

«لأنني أدركتُ أنّني لم أكن قادرة على خلق أي شيء يخصني يمكن أن يضاهيهما»

ابتسمتُ ابتسامة رضا مفاجئة.

«عدتِ إذن حبّاً لابنتيكِ».

«لا، عدتُ للسبب نفسه الذي رحلتُ من أجله: حبّاً لنفسي».

عبست مجدداً.

«ما الذي تقصدينه؟»

إنني شعرتُ أنّي غير مجدية ويائسة من دونهما أكثر مما لو كنت معهما»

حاولت أن تنقّب داخلي بعينيها: في صدري، خلف جبيني.

«عثرتِ على ما كنتِ تبحثين عنه ولم يعجبك ذلك؟»

ابتسمتُ لها.

«نينا ما كنتُ أبحث عنه كان شعاباً مشوشة من الرغبات والكثير من الادّعاء. لو كنت سيئة الحظ لقضيتُ الحياة بأكملها لأدرك ذلك، إلاّ أنّي كنت سعيدة الحظ فلم يستغرقني الأمر سوى ثلاث سنوات».

بدت لي غير راضية.

«وما الذي جعلك تقررين العودة؟»

«في أحد الصباحات اكتشفتُ أن كلّ ما كنتُ أرغب فيه هو أن أقشّر الفاكهة صانعة من قشرها أفاعي تحت أنظار بنتيّ، فأجهشت في البكاء».

«لا أفهم».

«إن أُتيح لنا الوقت سأخبرك».

وافقت بطريقة مبالغ بها لتُفهمني أنّها لم تكن ترغب سوى بالاستماع إليّ فيما تنبهت إلى أنّ إيلينا قد غفت فنزعت بحرص المصاصة من فمها، ولفتها في منديل كلينكس ووضعتها في حقيبتها. علا وجهها تعبير رقيق لتنقل إليّ الحنان الذي تثيره فيها ابنتها، وتابعت:

«وبعد عودتك؟»

«استسلمتُ للعيش قليلاً من أجلي وكثيراً من أجل الطفلتين،

شيئاً فشيئاً نجحتُ في ذلك».

«إذن سيزول»

«ماذا؟»

بدرت عنها حركة لتشير إلى دوار إنّما كذلك إلى شعور بالغثيان.

«فقدان البوصلة»

تذكرتُ أمّي، قلت لها:

«كانت أمي تستخدم عبارة أخرى، كانت تسميه التهشم»

تعرفت على الإحساس في الكلمة، صدرت عنها نظرة فتاة خائفة.

«صحيح، يتهشّم قلبكِ: لا تطيقين البقاء برفقة نفسكِ وتراودك بعض الأفكار التي لا تستطيعين الإفصاح عنها».

ثم عادت تسألني بتعبير وديع لشخص يبحث عَمَّنْ يربّت على رأسه.

«على أي حال يزول».

فكرتُ أنّ كلاً من بيانكا أو مارتا لم تحاول يوماً طرح أسئلة كتلك التي تطرحها نينا عليّ، بالنبرة الملحّة التي اعتمدتها. بحثتُ عن الكلمات لأكذب عليها فيما أقول لها الحقيقة في آن معاً.

«أمرَضَ ذلك أمي، ولكنها كانت تنتمي إلى حقبة أخرى. اليوم يُمكن أن نعيش على نحو أفضل حتى لو لم يزُل».

رأيتُها حائرة، كانت على وشك أن تضيف شيئاً ما ولكنّها عدلت عن ذلك. شعرتُ داخلها برغبة في أن تضمّني إليها، الشعور نفسه الذي كان ينتابني. كان انفعالاً ممتناً يتجلى كحاجةٍ ملحّةٍ إلى التواصل.

«يجب أن أمضي» قالت لي، وقبّلتني غريزياً على الشفتين قبلة خفيفة ومحرِجة.

عندما تراجعت رأيتُ خلف ظهرها في آخر الحديقة عند البسطات والحشد روزاريا وأخاها زوج نينا.

22

قلتُ ببطء:

«شقيقة زوجك وزوجك هناك»

عَبَر بريقُ مفاجأة يشوبها الانزعاج عينيها، لكنّها حافظت على هدوئها، لم تهمّ حتى بالاستدارة.

«زوجي؟»

«نعم».

غلبت لهجتها المحلية على كلامها فتمتمت: ما تُراه يفعل هنا، ما أخراه، كان يُفترض أن يأتي مساء الغد، وأدارت العربة بحذر لئلاّ توقظ الطفلة.

«هل أستطيع الاتصال بك؟» سألتني.

«متى شئتِ».

لوّحت بيدها باحتفالية، بادلها زوجها التحية.

«رافقيني» قالت لي.

رافقتُها. كان الأخوان يقفان عند بداية الدَّرب، للمرة الأولى

فاجأني الشبه بينهما. القوام نفسه، الوجه العريض نفسه، الرقبة الثخينة نفسها، الشفة السفلى البارزة والغليظة نفسها. فكرتُ متفاجئة من نفسي أنّهما جميلان: جسدان صلبان وقد زُرعا في إسفلت الشارع كنبات معتاد على أن يمتصَّ حتى أدنى خيط مائي. إنّهما هيكلان متينان قلتُ لنفسي، لا شيء يستطيع الوقوف في وجهيهما. أما أنا فلا، كل ما لدي تلجلج. فقد منعني الخوف الذي يبثّه فيّ هؤلاء الناس منذ سنيّ الطفولة، وأحياناً الاشمئزاز، وكذلك ادّعائي بأنّ مصيري سيكون رهيفاً، وحساسيتي العالية، من أن أُعجب بتصميمهم. ما هي تلك القاعدة التي تجعل من نينا حسناء وروزاريا لا. ما هي القاعدة التي تجعل من جينو وسيماً وهذا الزوج الذي يوحي بالتهديد لا. نظرتُ إلى المرأة الحامل وبدا لي أنّني أرى من خلف البطن المشدود بفستان أصفر الابنة التي تتغذّى منها. فكّرت بإيلينا التي تنام متراخية في العربة، وبالدمية. كنتُ أريد العودة إلى البيت.

قبّلتْ نينا زوجها على خدّه وقالت بلهجتها المحلية: كم أنا سعيدة لأنكَ أتيت قبل موعدكَ، وأضافت فيما كان هو ينحني ليقبلَ ابنته: إنّها نائمة لا توقظها، تعلم أنّها عذّبتني في الأيام الأخيرة، وثم قالت مشيرة إليّ بيدها: لا شكّ في أنّك تذكر السيدة، هي التي عثرت على لينوتشا. قبّلَ الرجل الطفلة أولاً على جبينها، إنّها متعرقة قال ذلك هو أيضاً بلهجته المحلية، هل أنتِ متأكدة أنّ الحمّى زالت؟ وفيما كان ينهض -رأيت بطنه الثقيل وراء القميص- خاطبني بودّ باللهجة المحلية ذاتها: لا تزالين هنا، أغبطكِ ليس لديكِ ما تفعلينه، وسرعان

ما أضافت روزاريا بجديّة: السيدة تعمل توني، السيدة تتعب حتى وهي على الشاطئ، ليست مثلنا نحن الذين لا نصنع شيئاً: طاب يومك سيدة ليدا، ومضوا.

رأيتُ نينا وهي تشبك ذراعها إلى ذراع زوجها، ابتعدت من غير أن تستدير ولو للحظة. كانت تتكلّم، وتضحك. بدا لي وكأنّها دُفعت فجأة -نظراً لنحولها وهي بين زوجها وأخته- إلى مسافة أكبر من تلك التي تفصلني عن ابنتيّ.

خارج منطقة المعرض كانت فوضى السيارات تسود، سواقٍ متشعّبة من الكبار والأطفال الذين كانوا إمّا يبتعدون عن البسطات وإمّا يصبّون عندها. سلكت طرقاً مقفرة. صعدتُ الدرج حتى بلغتُ شقتي، ارتقيتُ الدرجات الأخيرة وإحساس ملحّ يتملّكني.

كانت الدمية ما تزال على طاولة الشرفة، فيما الشمس قد جفّفت ثوبها. عرّيتها بتأنٍ، جرّدتها من كل شيء. تذكرتُ أنّ مارتا في صغرها اعتادت أن تحشر ما تيسر في كل ثقب صغير تقع عليه كما لو أرادت أن تخبئ الأشياء، وأن تتأكد من أنّها قادرة على العثور عليها. أخرجتُ في إحدى المرات قطعاً لا متناهية الصغر من السباغيتي غير المطهوة من جهاز الراديو. حملتُ نينا إلى الحمّام، أمسكتُ بجذعها بإحدى يديّ ورأسها إلى الأسفل. هززتُها بقوة فبصقت من فمها قطرات داكنة من الماء.

ما الذي وضعته إيلينا داخلها؟ سَعِدتُّ جدّاً عندما علمتُ في المرة الأولى التي حملتُ فيها أنّ الحياة داخلي كانت تتوالد. أردتُّ أن

أقوم بكل شيء على أفضل وجه. كانت نساء العائلة التي أتحدّر منها ينتفخن، ويتمددن. وكان الكائن المعشّش في أحشائهنّ يبدو مرضاً طويلاً يبدّلهن، وحتّى بعد الوضع لم يكنّ يعدن إلى ما كنّ عليه. أمّا أنا فقد أردتُّ حملاً يخضع للإشراف. لم أكن كجدتي (سبعة أبناء)، ولم أكن كأمي (أربع بنات)، ولم أكن كقريباتي أو كبناتهن. كنت مختلفة ومتمردة. أردتُ أن أحمل بطني المنتفخ بسعادة مستمتعة بأشهر الانتظار التسعة وأنا أراقب، وأقود، وأكيّف جسدي مع الحمل كما فعلت بعناد مع كل ما يخصّ حياتي منذ بداية مراهقتي. كنتُ أتخيل نفسي قطعة أخاذة في فسيفساء المستقبل. لذا سهرتُ على نفسي، واتّبعتُ بصرامة تعليمات الطبيب، وأفلحتُ في أن أبقى طوال فترة الحمل جميلة، وأنيقة، ومنتجة، وسعيدة. كنتُ أُحدّث الكائن في بطني وأجعله يستمع إلى الموسيقى، وأقرأ عليه باللغة الأصلية النصوص التي كنتُ أعمل عليها، وكنتُ أُترجم له ذلك بجهد خلاّق يملؤني اعتزازاً. وما أصبح بيانكا لاحقّاً كان بالنسبة إليّ بيانكا منذ البداية، كائنا في أفضل تقويم، وقد طُهّر من السوائل والدم، وتأنْسَن، وتثقّف، لا يمت بصلة إلى كل ما قد يُذكّر بالقسوة العمياء للمادة الحية وهي تتوسع. لذا نجحتُ في تحويل آلام المخاض الطويلة والشديدة التي عشتها إلى اختبار متطرف أواجهه وقد أعددتُ العدّة له محتوية الذعر، مخلّفة عنّي -بالدرجة الأولى لأجلي- ذكرى وقوراً.

أبليتُ بلاء حسناً. كم كنتُ سعيدة عندما خرجت بيانكا منّي، وحطّت بين ذراعي لثوانٍ قليلة، وأدركتُ ساعتها أنها كانت المتعة

الأقوى في حياتي. وإن نظرتُ الآن إلى ناني ورأسها إلى الأسفل وهي تتقيأ في المغسلة رشاشاً بنياً ممزوجاً بالرمل أعجز عن إيجاد أيّ شبه مع حملي الأول، فحتى نوبات الغثيان كانت آنذاك قصيرة ومضبوطة. ولكن جاءت مارتا بعد ذلك. كانت هي من اعتدى على جسدي مجبرةً إياه على أن ينقلب بدون أي سيطرة. منذ البداية ظهرت لا كما مارتا إنّما كقطعة حديد حية في بطني. تحوّل جسمي إلى سائل كثيف دموي يحتوي غائطاً مسلوقاً معلقاً ينمو داخله أخطبوط عنيف بعيد عن أيّ إنسانية حتى أنّه كان يحوّلني، على الرغم من أنّه يتغذّى ويتوسّع، إلى مادة متحللة لا حياة فيها. ناني التي تبصق سائلاً أسود تشبهني عندما حملتُ للمرة الثانية.

كنت تعسة أساساً آنذاك ولكنّي لم أكن أعرف ذلك. بدا لي أنّ بيانكا الصغيرة على الفور بعد ولادتها قد تبدّلت فجأة وقد غدرتني مستولية على كلّ طاقتي، وكل قوتي، وكل قدرة لديّ على الخيال. بدا لي وكأنّ زوجي المصاب بحمّى العمل لم يتنبه حتى إلى أنّ ابنته وقد وُلدت قد باتت متوحشة، ومتطلبة، ومزعجة كما لم تبدُ لي أبداً داخل بطني. اكتشفتُ شيئاً فشيئاً أنّني كنتُ عاجزة عن جعل التجربة الثانية بديعة كالتجربة الأولى. تهاوى رأسي داخل ما تبقّى من جسدي، وبدا لي أنّه لم يكن هناك من شِعر، أو نثر، أو صورة بلاغية، أو جملة موسيقية، أو مشهد من فيلم، أو لون قادر على تدجين العتمة المتباهية التي أحملها داخلي. والانهيار الحقيقي ليّ كان ذاك: التخلي عن أي تمجيد للحمل، لا بل تفكيك الذاكرة السعيدة للحمل الأول

والوضع الأول.

ناني، ناني. واصَلَتِ الدمية الجامدة التقيؤ. لقد سكبتِ في المغسلة كلّ صلصالك، عافاكِ. فتحتُ شفتيها ووسعتُ بإصبعي ثقب الفم، وجعلت ماء الحنفية يسيل داخلها ومن ثم هززتُها بقوة لأغسل جيداً الجوف المظلم للجذع، والبطن ولأخرج أخيراً الطفل الذي وضعته إيلينا في الداخل. ألعاب. فلننقل للطفلات كلّ شيء منذ الصغر: سيفكرن هنّ باختراع عالم مقبول. أنا نفسي كنتُ ألعبُ الآن، فالأمّ ليست سوى ابنة تلعب، وكان ذلك يساعدني على التفكير. بحثتُ عن مِلقط الحواجب كان ثمة شيء ما عالق في فم الدمية. فلأعاود البدء من هنا، فكرتُ، ما هذا الشيء. كان عليّ أن أُدرك ذلك على الفور، عندما كنتُ فتاة، هذا الورم المحمرّ الطري الذي أضمه الآن بين معدن الملقط. أن أقبل به كما هو. كائن مسكين لا إنسانية فيه. ها هو الطفل الذي أدْخَلَته لينوتشا داخل بطن دميتها، لتتظاهر بأنّها حامل مثل عمتها روزاريا. أخرَجْتُه بعناية. كانت دودة رملية، لا أعرف اسمها العلمي: كتلك الديدان التي يعثر عليها صيادو المغيب المرتجلون إن حفروا الرمل الرطب كما كان يفعل أبناء عمّي الأكبر سناً منذ أربعة عقود على الشاطئ بين غاريلينانو وغاييتا. كانوا يتناولون الديدان بأصابعهم ومن ثم يشكّونها في الصنّارة كطعم للأسماك، وكانوا عندما تُطبِق الأسماك على الطعم يحررونها من الحديد بحركة محترفة ويقذفونها خلفهم تاركين إياها تحتضر على الرمل الجاف.

كنتُ أبقي شفتي ناني الطريتين مفتوحتين بواسطة إبهامي فيما

كنتُ أُعمل الملقط بأناة. أتقزز من كل ما يزحف، ولكنّي شعرتُ أمام العلقة اللزجة تلك بأسف صريح.

23

توجهتُ إلى الشاطئ عند آخر بعد الظهر. راقبتُ نينا عن بعد من تحت مظلتي حيث ينتابني مجدداً الفضول المحبّ الذي اعتراني في أيام إجازتي الأولى. كانت عصبية، فإيلينا لم تكن تفارقها لحظة.

عند المغيب وفيما كانت تستعدّ للعودة إلى البيت، كانت الطفلة تصرخ قائلة إنّها تريد أن تسبح مجدداً، وتدخّلتْ روزاريا عارضة أن تحمل هي الطفلة إلى البحر، ففقدتْ نينا برودة أعصابها، وبدأت تصرخ في وجه شقيقة زوجها بلهجة قاسية مليئة بالعبارات البذيئة ما أثار انتباه الجميع على الشاطئ. لزمت روزاريا الصمت. إلاّ أنّ تونينو، زوجها، تدخل وجرّها نحو الضفة ممسكاً بذراعها. كان يبدو كرجل دُرّب على ألاّ يفقد أبداً رباطة جأشه حتى عندما تمسي الحركات عنيفة. كلّم نينا بحزم ولكن كما في فيلم صامت، ولم يصلني منه أيّ صوت. كانت هي تحدّق إلى الرمل وتمسّ عينيها بأطراف أصابعها وتقول بين الحين والآخر لا.

عاد الوضع تدريجياً إلى طبيعته وتفرقت العائلة في مجموعات توجهت إلى الفيلا في حرج الصنوبر. نينا تتبادل الكلام ببرود مع روزاريا، وروزاريا تحمل بين ذراعيها إيلينا، وتقبّلها بين الفينة

والأخرى. رأيت جينو وقد توجّه ليرتّب الكراسي، والأسرّة، والألعاب المتروكة. رأيتُه يلتقط رداء أزرق بقي معلقاً في إحدى المظلات وهو يطويه بعناية واستغراق. عاد أحد الفتيان أدراجه راكضاً، انتزع منه الرداء بغلظة من غير أن يبطئ تقريباً، واختفى وراء الكثبان.

انزلق الوقت بكآبة، حلّت نهاية الأسبوع. بدأ التدفق الكثيف للسابحين بشدّة ابتداءً من يوم الجمعة، كان الطقس حاراً. جعلت الحشود عصبية نينا تتزايد. كانت تراقب بهوس ابنتها وتهبّ واقفة هبّة حيوان ما إن تراها وقد ابتعدت لخطوات قليلة. تبادلنا عند الشاطئ تحيات مختصرة، وتبادلنا كلمات قليلة عن الطفلة. انحنيت على مقربة من إيلينا، وقلت لها شيئاً ما من باب اللّعب، كانت عيناها حمراوين، وظهرت لسعات الناموس على خدّها وعلى جبينها. جاءت روزاريا لتضع هي أيضاً قدميها في الماء لكنّها تجاهلتني، حييتها؛ وفأجابتني في غير حماس.

رأيتُ لاحقاً تلك الصبيحة تونينو، وإيلينا، ونينا يأكلون البوظة جالسين في مقهى المسبح. مررتُ قربهم متوجهة إلى البار لأطلب فنجان قهوة، ولكن بدا لي أنّهم لم يروني، كانا مأخوذَين جدّاً بالطفلة. ولكن عندما هممتُ بالدفع قال لي مدير المسبح إنّي لا أدين له بشيء، فقد أشار له تونينو بأن يضع الثمن على حسابه. هممتُ أن أشكره، ولكنهم كانوا قد غادروا المقهى، كانا مع إيلينا عند الشاطئ، قلّما كانا يهتمان بالصغيرة، فقد كانا يتشاجران الآن.

أمّا جينو، فكان يكفي أن أُدير نظري قليلاً بين الحين والآخر لتقع عيني عليه، وهو يراقبهم عن بُعدٍ، فيما كان يتظاهر بأنّه يدرس. اكتظَّ الشاطئ أكثر فأكثر، اختلطت نينا بين السابحين، غير أنّ الفتى وضع جانباً تماماً الكتاب الذي يقرأه لتقديم امتحانه، وأخذ يستخدم المنظار الذي زُوّد به، كما لو كان يخشى أن تجتاح المكان موجة عارمة فجأة. أمّا أنا، فلم أكن أفكر فيما تراه عيناه، وقد قوّتهما العدستان، بل بما كان يتخيل: ساعات ما بعد الظهر الأولى الحارة عندما انسحبت عائلة نابولي الكبيرة كالعادة من البحر، السرير الزوجي في الظل، نينا المشبوكة إلى جسد زوجها، العرق.

عادت الأم الشابة إلى الشاطئ عند الخامسة عصراً تقريباً، فرحة وزوجها إلى جانبها يحمل إيلينا بين ذراعيه، فيما حدّق إليها جينو بأسف، ثم ما لبث أن خبّأ نظراته في كتابه. بين الحين والآخر كان يستدير نحوي وما يلبث أن يشيح نظره في الحال. كنا ننتظر نحن الاثنين الأمر نفسه: أن تنتهي إجازة نهاية الأسبوع بسرعة، وأن يعود الهدوء إلى الشاطئ، وأن يرحل زوج نينا، وأن تتمكّن هي مجدداً من الاتصال بنا.

ذهبتُ مساء إلى السينما، كان فيلماً غير ذي بال يُعرض في صالة شبه مقفرة. عندما أُطفئت الأضواء، وكان الفيلم على وشك أن يبدأ، دخلت مجموعة من الفتيان. كانوا يأكلون المكسرات، ويضحكون ويشتمون بعضهم البعض، ويجرّبون رنات هواتفهم المحمولة، ويصرخون بكلام فاحش لظلال الممثلات على الشاشة. لا أطيق

أن يزعجني أحدٌ وأنا أشاهد فيلماً، حتى وإن كان فيلماً رخيصاً. لذلك صفرتُ أولاً بقوة، وعندما لم يستجيبوا، استدرتُ نحوهم، وقلتُ: إنّه إن لم يكفوا سأستدعي الفتّاحة [عاملة المسرح]. كانوا فتيان عائلة نابولي. «استدعي الفتّاحة» قالوها ساخرين، ربما لم يسمعوا يوماً الكلمة، وهي تُستخدم بهذا المعنى. صرخ أحدهم فيّ باللهجة المحلية: استدعيها يا حقيرة، استدعي تلك المخرأة. نهضتُ وتوجهت إلى شباك التذاكر. شرحتُ الوضع لرجل أصلع في منتهى اللطف. أكّد لي أنّه سيسوّي بنفسه الأمر فعدتُ إلى الصالة ترافقني ضحكات الفتية. وصل الرجل بعدي بقليل، أزاح الستار وأطلّ برأسه. صمتٌ. بقي هناك لبضع دقائق، ثم انسحب. استُؤنفت الجلبة في الحال، كان المشاهدون الآخرون يلزمون الصمت، نهضت، وصرختُ قليلاً بهستيريا: سأخرج وأستدعي الشرطة. بدأوا يغنون: تعيش تعيش، تعيش الشرطة. انصرفتُ.

في اليوم التالي، يوم السبت، كانت العصابة على الشاطئ، بدت كأنها تنتظر قدومي. كانوا يتضاحكون، ويشيرون إليّ، رأيتُ بعضهم وهم ينظرون نحوي. كانوا يهذرون مع روزاريا. فكرتُ في أن أتوجه إلى زوج نينا، لكنّني خجلتُ من تلك الفكرة وبدا لي وكأني دخلتُ ولو للحظة في منطق المجموعة. عند الثانية عصراً تقريباً دبّ فيّ اليأس بسبب الجموع، والموسيقى الصاخبة التي كان يبثّها المسبح جمعتُ متاعي ومضيت.

كان حرج الصنوبر مقفراً، سرعان ما شعرتُ بأنّي ملاحقة.

عادت على حين غرة ذكرى كوز الصنوبر الذي وقع على ظهري، حثثتُ الخطى. استمرت جلبة الخطوات خلف ظهري، تملّكني الرعب، وأخذت أهرول. شعرتُ بالضجيج يشتدّ، وكذا الأصوات والضحكات المكتومة. صرير الزيزان، ورائحة الصمغ الساخن لم يعودا يروقان لي، بدَوَا لي جهازاً من صنع القلق. أبطأتُ السير لا لأنّ الخوف تلاشى، بل حرصاً على كرامتي.

شعرتُ بالضيق في البيت، تعرّقتُ عرقاً بارداً، ثم ساخناً، وانتابني إحساس بالاختناق. استلقيتُ على الكنبة فاستردت ببطء هدوئي. حاولتُ استعادة زمام الأمور، كنستُ البيت. كانت الدمية عارية، ورأسها إلى الأسفل في المغسلة، ألبستُها ثيابها. لم يعد الماء يقرقع داخل بطنها، تخيلتُ بطنها حفرة جافة. عليّ أن أرتّب، أن أفهم. فكرتُ كيف أنّ فعلاً مبهماً يتسبب بأفعال أخرى تتسم بمزيد من الإبهام، وتُمسي المشكلة بذلك كسر السلسلة. كانت إيلينا ستسعد باستعادة دميتها قلتُ لنفسي. أو ربما لا، فالطفل لا يريد فقط ما يطلبه لا بل الطلب الذي لُبّي يجعل النقص الذي لا يعترف به أمراً لا يُطاق.

استحممتُ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة فيما كنت أتنشّف. تبدّل فجأة الانطباع الذي تملّكني خلال الأشهر الأخيرة. لم أشعر أنّني استعدتُ شبابي، بل أنّي هرمتُ، وأنّ هزالي مفرط؛ فجسدي نحيلٌ جدّاً حتى لَيبدو أن لا سماكة له، وقد خالطت شعيرات بيضاء شعر العانة الأسود.

خرجتُ، قصدتُ الصيدلية لأزن نفسي. طبع لي الميزان على ورقة

الوزن والطول. تبين أنّي أقصر بستة صنتمترات وأنّ وزني تحت المعدل. جرّبتُ مجدداً فتراجع الطول أكثر وكذلك الوزن. مضيتُ تائهة. من بين خيالاتي الأكثر إثارة للهلع كان ثمة فكرة أن أصغر، أن أعود مراهقة، طفلة، أن يُحكم عليّ بأن أعيش مجدداً تلك المرحلة من حياتي. بدأتُ أعجب نفسي فقط بعد أن تجاوزتُ الثامنة عشرة من العمر عندما تركتُ عائلتي، والمدينة لأدرس في فلورنسا.

تنزهتُ على كورنيش البحر إلى أنّ حلّ المساء وأنا أقرمش جوز الهند الطازج، واللوز المحمّص، والبندق. أضاءت المتاجر أنوارها، ومدّ الشبان السود على الأرصفة بضائعهم، وطفق آكل نار ينفث شعلات طويلة، وجمع مهرّج، كان يعقد بالونات ملونة صانعاً منها أشكال حيوانات، وجمهور عريض من الأطفال حوله، وتصاعد صخب مساء السبت. اكتشفتُ أنّه كان يجري في الساحة إعدادُ حفل راقص، فانتظرتُ أن يبدأ.

أُحبّ الرقص، أحبّ النظر إلى الناس وهم يرقصون. بدأت الفرقة الموسيقية بمقطوعة تانغو، بدأ أزواج من المسنين بصورة خاصة بالمجازفة، كانوا بارعين. تعرفتُ بين الراقصين على جوفاني، كان يرقص بخطى ونقلات جدية العزم. ازداد المشاهدون وتشكّلت حلقة كثيفة عند أطراف الساحة، أزواج الراقصين ازدادت، وتضاءلت البراعة. فبدأ أشخاص من مختلف الأعمار يرقصون، أحفاد لبقون مع جداتهم، آباء مع بناتهن البالغات العاشرة من العمر، سيدات مسنّات مع سيدات مسنّات، أطفال مع أطفال،

سيّاح وسكان محليون. رأيت فجأة جوفاني أمامي، دعاني للرقص.

تركتُ حقيبتي لسيدة مسنة من معارفه وبدأنا بالرقص، برقصة فالس كما أظنّ. منذ تلك اللحظة لم نتوقف أبداً. تحدّث عن الحر، وعن السماء الملأى بالنجوم، عن القمر الذي اكتمل بدراً، وعن وفرة بلح البحر في تلك الفترة. شعرتُ بتحسن متعاظم. كان يتصبب عرقاً، وكان متوترا، ولكنّه ظلّ يدعوني، كان بالفعل يتصرف بلطف، وكنتُ أقبل الدعوة، كنت أتسلى كثيراً. تركني فقط وهو يعتذر عندما ظهرت، بين الجموع عند طرف الساحة عائلة أهل نابولي.

ذهبتُ لأسترجع حقيبتي، وراقبتُه فيما كان يلقي التحية بكياسة على نينا، وروزاريا، وأخيراً بمهابة خاصة على تونينو. رأيتُه كذلك وهو يساير بحركات خرقاء إيلينا التي كانت بين ذراعي أمّها تأكل كبكوباً من غزل البنات بلغ حجمه ضعف حجم وجهها. عندما فرغوا من تبادل التحيات، بقي إلى جانبهم جامداً على غير راحته من غير أن ينبس ببنت شفة، ولكن كما لو كان يعتز بأن يُشاهد برفقتهم. أدركتُ أنّ الأمسية انتهت بالنسبة إلي، وهممتُ بالانصراف. لكنّي تنبهتُ إلى أنّ نينا كانت توكل لروزاريا ابنتها، وتجبر زوجها على الرقص. بقيتُ لبرهة لأراها وهي ترقص.

كانت حركاتها تتّسم بتجانس طبيعي لطيف على الرغم، أو ربما لأنها بين ذراعي ذاك الرجل الأخرق. شعرتُ بلمسة على ذراعي. كان ذاك جينو وقد انبعث كحيوان من زاوية ما كمن فيها. سألني إن كنت أرغب في الرقص، قلتُ له إني تعبة، غير أنّي كنتُ أشعر داخلي

بفرح خفيف، فأمسكتُ بيده ورقصنا.

لاحظتُ على الفور أنّه كان ينزع لأن يقودني نحو نينا وزوجها، كان يريدها أن ترانا. لبّيتُ رغبته، فلم يكن يؤسفني أنا أيضاً أن أظهر بين ذراعي عاشقها. ولكن وبين جمع الأزواج تبيّن أن بلوغهما صعب وقد عدلنا نحن الاثنين عن ذلك من غير أن نتبادل الكلام. كنتُ قد أبقيتُ حقيبتي معلّقةً إلى كتفي باصطبار. كان من الممتع الرقص مع ذاك الشاب النحيل، الفارع الطول، الأسمر اللون بعينيه اللامعتين وشعره الأشعث وكفّيه الجافتين. كان قربه مختلفاً تماماً عن الاقتراب من جوفاني. كنتُ أشعر بالفرق بين الجسدين، وبين الروائح. كنت أرى في ذلك انفصالاً للزمن، بدا لي وكأنّ الأمسية نفسها هناك في الساحة قد تمزقت، وآل بي المآل بفعل السحر إلى أن أرقص في فصلين مختلفين من حياتي. عندما توقفت الموسيقى قلتُ إنّي تعبة، أراد جينو مرافقتي. خلّفنا وراءنا الساحة، وكورنيش البحر، والموسيقى. تحدثنا عن امتحانه، وعن الجامعة. عند البوابة انتبهتُ إلى أنّه يتلكأ في أن يستودعني.

«هل تريد أن تصعد؟» سألته.

أومأ برأسه أن لا، كان محرجاً قال:

«الهدية التي أعطيتِها لنينا جميلة».

غاظني أن يكونا قد تمّكنا من أن يتقابلا، وأنّها أرته حتّى الدبوس. أضاف:

«كانت سعيدة حقّاً للطفك».

تمتمت بنعم، هذا من دواعي سروري. قال عند ذلك:

«لديّ خدمة أطلبها منكِ»

«ماذا؟»

لم ينظر إلى وجهي، حدّق إلى الجدار خلفي.

«تودّ نينا أن تعرف إن كنتِ حضرتكِ مستعدّة لإعارتنا البيت لبضع ساعات».

شعرتُ بالانزعاج، شحنة ضيق سمّمت عروقي. تفرستُ في وجه الفتى لأتبيّن ما إذا كان يخفي وراء تلك الصيغة طلباً لم يصدر عن نينا بل وُلد من رغبته. أجبتُ بجلافة:

«قُل لنينا إنّي أريد أن أكلّمها»

«متى؟»

«حين تستطيع ذلك»

«زوجها يرحل مساء الغد، من المستحيل قبل ذلك».

«صباح الاثنين لا بأس».

سكت، بات عصبياً، عجز عن الانصراف.

«هل حضرتك غاضبة؟»

«لا».

«لكنّ ملامحك تشي بغير ذلك».

قلتُ له بجفاء:

«جينو، الرجل الذي يهتمّ بشقتي يعرف نينا، ولديه روابط ما بزوجها».

علا وجهه تعبير احتقار وارتسمت عليه نصف ابتسامة.

«جوفاني؟ لا وزن له على الإطلاق تكفي عشرة يورو لإسكاته».

قلتُ له عند ذلك بغضب لم أفلح في إخفائه:

«لماذا قررتما أن تطلبا ذلك منّي أنا بالذات؟»

«هذه مشيئة نينا».

24

غفوتُ بصعوبة. فكرتُ في أن أتّصل بالفتاتين، كانتا هناك في زاوية من رأسي لكنّي كنتُ أضيعهما باستمرار في معمعة تلك الأيام. هذه المرة أيضاً عدلتُ عن ذلك. ستَتْلوان عليّ ما تحتاجان إليه، تنهدتُّ. ستقول مارتا إنّي حرصتُ على إرسال الملاحظات التي طلبتها بيانكا ولكنّي نسيتُ شيئاً ما، لستُ أدري ماذا، هناك ما أنساه دائماً ممّا تطلبه هي منّي. هذا هو الحال مذ كانتا صغيرتين، تعيشان تساورهما شكوك في أن أبذل مزيداً من الجهد لصالح إحداهما على حساب الأخرى. في الماضي كان الأمر ينحصر في الألعاب، والحلوى، وحتى عدد القبلات التي أوزّعها. ومن ثمّ راحتا تتجادلان بسبب الثياب، والأحذية، والدراجات النارية، والسيارات، أي في المحصلة المال. بات عليّ أن أحرص على أن أعطي كل واحدة منهما بالضبط ما أعطيه للأخرى، لأنّ لدى كل منهما حسابات سرية ورصيداً من الحقد. شعرتا منذ الصغر بأنّ عاطفتي قابلة للتسرب، لذا فهما

تقيّمانها بالاستناد إلى الخدمات الملموسة التي أسديها، والمقتنيات التي أوزّعها. أحياناً يخيّل إليّ أنّهما تنظران إليّ فقط باعتباري إرثاً مادياً يجب أن يتنازعاه بعد موتي. لا تريدان أن يحصل للمال، ولممتلكاتنا القليلة ما حدث، كما جرى في رأيهما، عند نقل ملامح جسمي. لا لم أكن أرغب في الاستماع إلى شكواهما. لمَ لا تتصلان بي. إن لم يرن جرس الهاتف فلا شك في أنّه ليست لديهما طلبات ملحة. تقلّبتُ مراراً في السرير، جافاني النوم، كنت غاضبة.

على أي حال لا بأس بتلبية مطالب ابنتيّ. كانت بيانكا ومارتا، وفقاً لتناوب حدّدتاه بشراسة، قد طلبتا مني مئة مرة في أواخر مراهقتهما أن أخلي لهما الشقة. كانت لديهما قصصهما الجنسية، وقد كنتُ متجاوبة دائماً. كنتُ أفكر: البيت أفضل من السيارة، من طريق معتم، من حقل فيه شتّى ضروب الإزعاج حيث تتعرضان للكثير من المخاطر. هكذا كنتُ أذهب بشجن إلى المكتبة العامة، أو إلى السينما، أو لقضاء الليل لدى صديقة. إنما نينا؟ نينا كانت صورة على شاطئ في شهر أغسطس، تقاطعُ نظرات وبضع كلمات، في أقصى تقدير كانت ضحية حركة اعتباطية هي وابنتها. لِمَ أتركُ لها البيت؟ ماذا دهاها؟

نهضتُ، جلت في الشقة وخرجتُ إلى الشرفة. كان الليل ما يزال مليئاً بأصداء الحفلة. شعرتُ فجأة بوضوح بالخيط المشدود بين تلك الفتاة وبيني: لم تتردد إحدانا على الأخرى على الإطلاق تقريباً، وعلى الرغم من ذلك تجمعنا رابطة متنامية. ربما كانت تريد منّي أن أرفض

إعطاءها المفاتيح لتتمكن من أن ترفض لنفسها هذا التنفيس الخطر عن الضيق. أو ربما كانت تريد أن أعطيها المفاتيح لتقرأ في تلك الحركة الإذن في أن تجازف بالفرار، بسلوك طريقِ مستقبلٍ مختلف عن ذاك المكتوب لها. على أي حال كانت ترغب في أن أضع في خدمتها تلك التجربة، والحكمة، والقوة المتمردة التي كانت تنسبها إلي في خيالها. كانت تطالبني بأن أعتني بها، أن أتبعها الخطوة تلو الأخرى، وأنا أدعمها في خياراتها التي كنتُ سأدفعها على أي حال إلى القيام بها، سواء أأعطيتُها المفاتيح أم لم أعطِها إياها. بدا لي أخيراً وقد عمّ السكون البحر والبلدة أنّ المشكلة لم تكن بضع ساعات من الحب مع جينو في بيتي، بل تسليمها نفسها إلي لأهتمّ بحياتها. ولأنّ المنارة كانت تلقي بوتيرة منتظمة على الشرفة ضوءاً لا يُطاق نهضتُ ودخلتُ المنزل.

أكلتُ عنباً في المطبخ. كانت ناني على الطاولة. بدا لي مظهرها نظيفاً وجديداً لكنّها كانت تحمل كذلك تعبيراً يصعب فكّ رموزه، اضطراب، من غير نورِ ترتيبٍ أكيد، نورِ حقيقة ما. متى اختارتني نينا هناك على الشاطئ؟ كيف دخلتُ حياتها؟ حشرتُ نفسي بالتأكيد، دخلتُ بشكل فوضوي. أسندتُ إليهما دور الأم المثالية، ودور الابنة حسنة التربية، ولكنّني عقدتُ حياتها حارمة إيلينا من الدمية. بدوتُ لها امرأة حرّة، ومستقلة، ومرهفة، وشجاعة، لا تحمل حفراً قاتمة، ولكنّني بنيتُ الإجابات على أسئلتها المحمومة كما لو كانت تمارين مترددة. بأي صفة، لماذا؟ كانت الأواصر التي تجمعنا سطحية،

وكانت مجازفتها هي أكبر بكثير من المجازفة التي خضتُها لعشرين سنة خلت. عندما كنتُ صبية كنت أتمتّعُ بحسٍّ راسخ بنفسي، كنتُ طموحاً، وقد انسلخت عن عائلتي الأصلية بالقوة الجسور نفسها التي يتحرّر بها المرء ممن يعيقه. تركتُ زوجي وابنتيّ في لحظة كنت واثقة فيها بأنّه يحق لي ذلك، بأنني على صواب من غير أن أحفل بأن جانّي كان قد فُجع ولكنّه لم يلاحقني، كان رجلاً حريصاً على احتياجات الغير. في السنوات الثلاث التي أمضيتُها من غير ابنتيّ لم أكن يوماً وحيدة، كان هاردي هناك، رجلٌ مرموق، وكان يحبُّنِي. كنتُ أشعر بأن عالَماً صغيراً مؤلفاً من الصديقات والأصدقاء كان يدعمني، وحتى عندما كانوا يحاربونني، كانوا يتنفسون ثقافتي نفسها، ويتفهّمون طموحاتي وضيقي. عندما بات الثقل في أحشائي لا يُطاق وبعد أن عدتُ إلى بيانكا ومارتا انسحب البعض بصمت من حياتي، وقد أُوصدت بعض الأبواب في وجهي إلى الأبد، وقرّرَ زوجي السابق أنّه حان دوره في الفرار فذهب إلى كندا، غير أنّ أحداً لم يطردني واصماً إياي بالطالحة. أمّا نينا فلم تكن تمتلك أياً من الدفاعات التي أعددتُها أنا قبل القطيعة. بالإضافة إلى ذلك، وفي هذه الأثناء، لم يكن العالم قد تحسّن على الإطلاق، بل أصبح أكثر قسوة على النساء. لقد كانت تجازف، وهو ما قالته لي، بأن تُذبح لأقل بكثير ممّا فعلتُه أنا منذ عشرين عاماً.

حملتُ الدمية إلى غرفة النوم. أعطيتُها وسادة تستند إليها، ووضعتُها على السرير كما كان الناس يفعلون في ما مضى في بعض

بيوت الجنوب، وقد فتحت ذراعيها واستلقيتُ إلى جانبها. عاودتُ التفكير في برندا، الصبية الإنجليزية التي التقيتُها لساعات قليلة فقط في كالابريا، وفطنتُ فجأة إلى أنّ الدور الذي كانت تدفعني نينا لأدائه كان هو نفسه ذاك الذي أسندتُه إليها. كانت برندا قد ظهرت على الطريق السريع المؤدي إلى ريدجو كالابريا، وقد منحتُها قدرة كنتُ أتمنى أن أتمتع بها بنفسي. ربما تنبّهت هي إلى ذلك وعن بعد، وبحركة بسيطة ساعدتني تاركة لي بعد ذلك مسؤولية حياتي. كان يمكن لي أن أقوم بالأمر نفسه. أطفأتُ النور.

25

استيقظتُ في ساعة متأخرة، تناولتُ ما تيسّر وعدلتُ عن الذهاب إلى البحر. كان اليوم يومَ أحد، وكان يوم الأحد السابق قد خلّف في نفسي ذكرى مريعة. جلستُ إلى الشرفة مع كتبي ودفاتري.

كنتُ راضية بما يكفي عن العمل الذي كنتُ أُعدّه. لم تكن حياتي الأكاديمية سهلة يوماً، إلاّ أنّني في الآونة الأخيرة، والذنب ذنبي بالتأكيد فقد ساءت طباعي على مرّ السنوات، أمسيتُ دقيقة بإفراطٍ وأحياناً قليلة الحلم. تعقّدتِ الأمور أكثر بالنسبة إلي، وكان من الضروري أن أعود إلى العمل بصرامة. انقضتِ الساعات بسرعة من غير أن أتلهّى. أظل أعمل إلى أن ينسحب النور، لا يزعجني سوى الحر الرطب وبعض الزنابير.

فيما كنتُ أشاهد فيلماً تلفزيونياً وقد شارفت الساعة على منتصف الليل رنّ هاتفي الخلوي. تعرفتُ على رقم نينا، أجبتُها. سألتني بعجلة إن كانت تستطيع القدوم إلى بيتي غداً عند العاشرة صباحاً. أعطيتُها العنوان وأطفأتُ جهاز التلفزيون وذهبتُ لأنام.

في اليوم التالي خرجتُ باكراً، بحثتُ عمّن يصنع لي نسخة من المفاتيح، عدتُ إلى البيت عند العاشرة إلاّ خمس دقائق، رنّ هاتفي فيما كنتُ ما أزال أصعد الدرج. قالت لي نينا إنّه يستحيل عليها الوصول عند العاشرة، كانت تأمل في أن تتمكن من أن تأتي عند السادسة.

اتخذت قرارها، فكرتُ، لن تأتي. أعددتُ حقيبتي لأذهب إلى البحر، غير أنّي سرعان ما عدلتُ عن ذلك. لم أكن أرغب في رؤية جينو كما كان يزعجني أبناء عائلة نابولي فقد كانوا مدللين وعُنُفاً. استحممتُ وارتديتُ مايوه من قطعتين واستلقيتُ في الشمس على الشرفة.

مرَّ النهار ببطء يتخلله الاستحمام، والشمس، والفاكهة، والدرس. كنتُ أفكّر بين الفينة والأخرى بِنينا، وكنتُ أنظر إلى الساعة. جعلتُ، إذ استدعيتُها، كل شيء أكثر صعوبة عليها. في البداية لا شكّ في أنّها كانت تعوّل على أن أعطي مفاتيح البيت لجينو، وأن أتفق معه على اليوم، والساعات التي كنتُ سأترك لهما الشقة خلالها. ولكن نظراً إلى أنّني طلبتُ أن أتحدّث مباشرة معها أخذت تتحيّر. تصورتُ أنّه كان يصعب عليها أن تتوجه إلي شخصياً بطلب تواطؤ.

غير أنّه وعند الساعة الخامسة وبينما كنتُ أرتدي المايوه تحت الشمس وشعري مبلل، رنّ الإنترفون. كانت هي. فتحتُ لها الباب، وانتظرتُ عند العتبة أن تصعد. ظهرت تعتمر قبعتها الجديدة لاهثة. كنتُ في الشرفة قلتُ لها تفضلي، سأرتدي ثيابي في الحال. أومأت بقوة بالرفض. كانت قد تركت إيلينا وروزاريا متذرعة بأنّها تريد شراء قطرة من الصيدلية لفتح منخري الطفلة. قالت إنّها تتنفس بصعوبة، لا تفارق الماء وقد أصابها رشحٌ. شعرتُ أنّها مضطربة جدّاً.

«اِجلسي قليلاً».

فكّت القبعة عن الدبوس، ووضعتهما معاً على طاولة غرفة الجلوس، ففكرتُ، وأنا أنظر إلى العنبر الأسود، والعود الطويل البرّاق، أنّها اعتمرت القبعة، فقط لتثبت لي أنّها تستخدم الهدية التي قدمتُها لها.

«المكان جميل»، قالت.

«هل تريدين حقّاً المفاتيح؟»

«إن كنتِ موافقة».

جلسنا على الكنبة. قلتُ لها إنّي متفاجئة، ذكّرتُها بلطف أنّها جزمت أنّها سعيدة مع زوجها، وأنّ جينو كان مجرد لعبة. أكّدَتْ كل ذلك بانزعاج. ابتسمتُ.

«ماذا إذن؟»

«ضقتُ ذرعاً».

وضعتُ عينيّ في عينيها لم تُشح بهما، قلتُ حسناً. تناولتُ المفاتيح

من الحقيبة، وضعتُها على الطاولة قرب الدبوس والقبعة.

نظرت إلى المفاتيح غير أنّها لم تبدُ لي سعيدة. قالت:

«ما رأيكِ في؟»

وجدتُني بغتة أكلمها بالنبرة التي أستخدمها عادة مع طالباتي.

«أعتقد أنّكِ بذلك تذهبين إلى التهلكة. يجب أن تواصلي الدراسة، نينا، أن تحصلي على الشهادة الجامعية وأن تعثري على عمل».

ظهر عليها تعبير إحباط.

«لا أعرف أي شيء، ولا أساوي أي شيء. حملتُ وأنجبتُ طفلة، ولا أعلم حتى كيف أنا من الداخل. الشيء الوحيد الحقيقي الذي أرغب فيه هو أن أهرب».

تنهدتُ.

«اِفعلي ما تشائين».

«هل ستساعدينني؟»

«هذا ما أفعله الآن».

«أين تقيمين؟».

«في فلورنسا».

ضحكت ضحكتها العصبية المعتادة.

«سآتي لزيارتكِ».

«سأعطيكِ عنواني».

همّت بتناول المفاتيح، ولكنّي نهضتُ، وقلتُ لها:

«انتظري يجب أن أعطيكِ شيئاً آخر».

نظرت إلي بابتسامة متشككة، ظنّت على الأرجح أنّها هدية أخرى. ذهبتُ إلى غرفة النوم، وأخذتُ ناني. عدتُّ فرأيتُها تلعب بالمفاتيح وقد علت شفتيها شبه ابتسامة. رفعت نظرها، زالت الابتسامة. قالت بصوت هامس مشدوهة:

«أنتِ من قد أخذتِها؟».

أومأتُ بالإيجاب، فهبّت واقفة على قدميها، تركت المفاتيح على الطاولة كما لو أنها أحرقتها وتمتمت:

«لماذا؟»

«لستُ أدري».

رفعت صوتها فجأة قائلة:

«تقرئين وتكتبين طوال اليوم، ولا تعرفين؟»

«لا».

هزّت رأسها غير مصدّقة، وعاودتْ نبرتُها الانخفاض.

«كانت معكِ. احتفظتِ بها، فيما لم أكن أدري ما عساني أفعل. كانت ابنتي تبكي، كانت تجنّنني وأنتِ تلزمين الصمت، كنتِ تنظرين إلينا، ولكنكِ لم تحرّكي ساكناً، لم تأتي بحركة».

قلتُ:

«أنا أمٌّ عاطلة».

وافقت على ذلك، صرخت بنعم، أنتِ أم عاطلة، انتزعت الدمية من بين يديّ بحركة إعادة استملاك متوحشة، صرخت لنفسِها بلهجتها يجب أن أذهب، صرخت بالإيطالية في وجهي: لا أريد أن

أراكِ بعد الآن، لا أريد أيّ شيء منكِ وذهبت باتجاه الباب.

صدرت عنّي حركة رحبة، قلتُ:

«خذي المفاتيح، نينا، سأرحل هذا المساء. سيبقى المنزل شاغراً حتى نهاية الشهر» واستدرتُ نحو الباب الزجاجي، لم أكن أطيق رؤيتها وقد جعلها الغضب تتوحش. همستُ:

«إني آسفة».

لم أسمع الباب يصفق. للحظة ظننتُ أنّها قررّت أن تأخذ المفاتيح، ومن ثم سمعتُها خلفي تفحّ شتائم بلهجتها، شتائم فظيعة كتلك التي كانت تعرف جدتي وأمي كيفية التلفظ بها. هممتُ بأن أستدير ولكنني شعرتُ بوخزة في الورك الأيسر، سريعة كحرق. خفضتُ عينيّ فرأيتُ طرف الدبوس يخرج من جلدي فوق البطن، تحديداً فوق الضلوع. ظهر طرف الدبوس لجزء من الثانية فقط، طوال البرهة التي استمرّ فيها صوت نينا، ونَفَسُها الحار، ثم اختفى. رمت الفتاة الدبوس على الأرض، لم تأخذ القبعة، ولم تأخذ المفاتيح. فرّت حاملة الدمية، ومغلقة الباب خلفها.

أسندتُ ذراعاً على الباب الزجاجي، نظرتُ إلى وركي، إلى قطرة الدم الصغيرة الجامدة على الجلد. شعرتُ بالقليل من البرد وكنتُ أشعر بالخوف. انتظرتُ أن يحدث لي شيء، غير أنّ شيئاً لم يحدث. صارت القطرة داكنة، تجمّدت، وتلاشى انطباع خيط النار المؤلم الذي اخترقني.

ذهبتُ لأجلس بحذر على الكنبة. ربما خرق الدبوس وركي كما

يخرق السيف جسد زاهد صوفي من غير أن يتسبب في أضرار. نظرتُ إلى القبعة الملقاة على الطاولة، وإلى قشرة الدم على الجلد. حلّت العتمة، نهضتُ وأضأتُ النور. بدأتُ بإعداد أمتعتي غير أنّي كنت أتحرك ببطء. عندما باتت الحقائب جاهزة ارتديتُ ثيابي وانتعلتُ خفّي وسوّيتُ شعري. عند ذلك رنّ هاتفي الخلوي. رأيتُ اسم مارتا، شعرتُ بسرور عظيم، أجبت. هي وبيانكا صرختا ببهجة في أذني في صوت واحد كما لو أعدّتا الجمل، وراحتا تسمّعانها مشدّدتين بمبالغة على لهجتي النابوليتانية:

«ماما ماذا تفعلين؟ لِمَ لا تتّصلين؟ هلاّ أخبرتِنا على الأقل إن كنتِ حيّة أم ميّتة؟»

همستُ بانفعال:

«أنا ميّتةٌ ولكنّي بخير».

ياسمين Books

t.me/yasmeenbooks

الابنة الغامضة

تعيد رواية «الابنة الغامضة» النظر في قدسيّة الأمومة على ضوء أحاسيس قاتمة تعتري المرأة، غالباً ما تسعى للتستر عليها. كما لا تتوانى عن مراجعة العديد من المسلّمات بشأن مؤسسة الأسرة عامة، مبرزة عمق التحولات التي تهزّ المجتمع الإيطالي، بعد أن كانت الأسرة فيه ركيزة تقليدية راسخة. بهذه العبارات تستهلّ بطلة الرواية توصيفها لهذا التحول الدّاهم: عندما انتقلت ابنتاي للإقامة في تورنتو حيث كان والدهما يقطن ويعمل منذ سنوات عدّة، اكتشفتُ بدهشة يخالطها الحرج أنني لم أكن أشعر بأي ألم، لا بل كنتُ أشعر بنفسي خفيفةً كما لو كنتُ بذلك قد أنجبتُهما أخيراً. للمرة الأولى منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً لم تلحّ علي ضرورة الاهتمام بهما، بقي البيت مرتّباً كما لو أن لا أحد يسكنه ولم أعد أنوء تحت ضغط التسوّق والغسيل، والمرأة التي كانت تعينني منذ سنوات عدّة في تصريف الأعمال المنزلية عثرت على عمل بمقابل أعلى ولم أشعر بالحاجة إلى من يحل محلّها.

t.me/yasmeenbooks

السعر 45 درهماً

9 789948 175704

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة